Middle East Journal of Humanities and Cultural Studies
Homepage: http://meijournals.com/ar/index.php/mejljs/index
ISSN: 2710-2238

مجلة الشرق الأوسط
للعلوم الإنسانية والثقافية

آرَاءُ الخَفَاجِيّ فِي اللَّفْظِ وَالمَعْنَى فِي كِتَابِهِ (سِرّ الفَصَاحَةِ)

نوره محمد عبد الله الدخيّل

قسم اللغة العربية، جامعة الملك سعود

استلام البحث: 11/12/2020 **مراجعة البحث:** 18/02/2021 **قبول البحث:**19/02/2021

ملخص الدراسة:

هدفت الدراسة الى تَتَبُّعَ آراءِ الخَفَاجِيّ حَوْلَ الألفاظِ والمعانِي. قضيَّةُ اللفظِ والمَعْنَى مِنَ القَضَايَا المهمَّةِ الَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا العلماءُ يُبَيِّنُونَ آراءَهُمْ حَوْلَهَا، وَقَدْ كَانَ الخَفَاجِيُّ مِمَّنْ وَقَفَ إِزَاءَ هَذِهِ القضيّةِ وَرَاحَ يتحدَّثُ عَنْهَا فِي كتابِهِ. وَقَدْ فَرَّقَ بَيْنَ الفصاحَةِ والبلاغَةِ وَوَضَعَ لَهَا شروطًا وأقسامًا. تَوَصَّلَتِ البَاحِثَةُ إِلَى أَنَّ الخَفَاجِيَّ قَدْ شُغِلَ بالمَحَاسِنِ والعُيُوبِ للألفاظِ والمَعَانِي وَفِي تَقْسِيمَاتِهِمَا الكَثِيرَةِ متأثرًا بقُدَامَةَ بْنِ جَعْفَرٍ، وَقَدْ كَانَ لابْنِ سِنَانٍ الخَفَاجِيّ جُهْدُهُ البَلَاغِيُّ والنَّقْدِيُّ فَبَيَّنَ قِيمَةَ الألفَاظِ المُفْرَدَةِ والألفَاظِ المُرَكَّبَةِ وَبَحَثَ خَصَائِصَهَا الصَّوْتِيَّةَ وَمَا يَعْتَرِيهَا مِنَ العِلَلِ والمُحَسِّنَات وَكَذَلِكَ فَعَلَ فِي المَعَانِي.

الكلمات المفتاحية: اللفظِ، المَعْنَى ، الفصاحَةِ، سرّ الفصاحَةِ

Abstract

The study aimed to track al-Khafaji's views on terms and meanings. The issue of wording and meaning is one of the important issues in which scholars have stood, stating their opinions about it, and the Khafaji qadha was one of the qadha's. He distinguished between eloquence and rhetoric, and set conditions and divisions for them. Researcher found that al-Khafaji has been filled with flower and defects of words and meanings in Tksamathma many of his Bakdamh Ben Jaafar, was Ibn Sinan al-Khafaji, his rhetoric and cash Between the value of the individual words and words composite search acoustic characteristics and to undergo ills and upgraders as well as he did in meanings.

Keywords: Utterance, meaning, eloquence, the secret of eloquence

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

المقدمة

إنَّ مِنَ الأهميَّةِ بمكانٍ دراسةَ كُتُبِ تُراثِ الأُمَّةِ الإسلاميةِ فِي كافَّةِ مجالاتِهَا وتخصُّصَاتِهَا الإنسانيَّةِ والعلميَّةِ؛ إِذْ إنَّ هَذِهِ الكُتُبِ تُعَدُّ مِنَ الأصولِ الَّتِي يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا الباحثُ فِي دراستِهِ لِيَكْشِفَ وُجوهًا مختلفةً لِتِلْكَ العلومِ، وَمِنْ أبرزِهَا علومُ اللغةِ العربيَّةِ، وَقَدْ جَاءَ الاهتمامُ بِهَا مِنْ مُنْطَلَقِ أهميَّةِ إدراكِ معانِي القرآنِ الكريمِ ومَرَامِي الحديثِ الشريفِ؛ وَلِذَا فَقَدْ بَرَزَ علماءُ كَثِيرُونَ كَشَفُوا عَنِ اللغةِ وحُسْنِهَا وإبداعِهَا فِي كلِّ فنٍّ مِنْ فُنُونِهَا، وَمِنْ هَؤُلَاءِ العلماءِ، عالِمٌ جليلٌ كَانَ لَهُ السبْقُ فِي إيضاحِ وجوهِ البلاغَةِ والفصاحَةِ وَهُوَ ابنُ سِنَانٍ الخَفَاجِيُّ الَّذِي وَضَعَ آراءَهُ فِي كتابِهِ "سرّ الفصاحَةِ"، وَقَدِ اخْتَارَتِ الباحثةُ قضيَّةَ اللفظِ والمَعْنَى فِي كتابِهِ المذكورِ موضوعًا للدراسةِ والعِنَايَةِ.

وقضيَّةُ اللفظِ والمَعْنَى مِنَ القَضَايَا المهمَّةِ الَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا العلماءُ يُبَيِّنُونَ آراءَهُمْ حَوْلَهَا، وَقَدْ كَانَ الخَفَاجِيُّ مِمَّنْ وَقَفَ إِزَاءَ هَذِهِ القضيّةِ وَرَاحَ يتحدَّثُ عَنْهَا فِي كتابِهِ. وَقَدْ فَرَّقَ بَيْنَ الفصاحَةِ والبلاغَةِ وَوَضَعَ لَهَا شروطًا وأقسامًا.

وَقَدِ اقْتَضَتْ طبيعةُ الدراسَةِ تَتَبُّعَ آراءِ الخَفَاجِيّ حَوْلَ الألفاظِ والمعانِي فَقُسِّمَ البحثُ إِلَى مُقَدِّمَةٍ وتمهيدٍ ومَبْحَثَيْنِ وخاتمَةٍ:

- **التمهيدُ:** وَفِيهِ بَيَانٌ لِأَهَمِّ المُصْطَلَحاتِ الواردَةِ فِي البحثِ.
- **المبحثُ الأولُ: وَفِيهِ** بَيَانٌ للشروطِ الَّتِي وَضَعَهَا الخَفَاجِيُّ حَوْلَ الألفاظِ المُفْرَدَةِ والألفاظِ المؤلَّفَةِ.
- **المبحثُ الثانِي:** اخْتَصَّ بالكَلَامِ حَوْلَ المعانِي المؤلَّفَةِ.
- **الخاتمَةُ:** وَفِيهَا أَبْرَزُ النتائِجِ الَّتِي تَوَصَّلَ إِلَيْهَا البحثُ.
- **المصادِرُ والمراجِعُ.**

وَقَدْ وَاجَهَتِ الباحثَةُ صُعُوبَةً فِي هَذَا البحثِ تمثَّلَتْ أَوَّلًا فِي الحصولِ عَلَى كتابِ "سرّ الفصاحَةِ" وَلَمْ أَسْتَطِعِ الحُصُولَ عَلَيْهِ مَطْبُوعًا بَلْ كَانَ اعْتِمَادِي عَلَى نسخَةٍ إلكترونيَّةٍ مُصَوَّرَةٍ. وَمِنَ الصُّعُوبَاتِ أيضًا جَمْعُ الآراءِ المختَلِفَةِ ومُقَارَنَتُهَا.

وإِنَّ هَذَا البحثَ وَإِنِ اقْتَصَرَ عَلَى اللفظِ والمَعْنَى فِي كتابِ "سِرّ الفصاحَةِ" إِلَّا أَنَّهُ يَحْتَاجُ وَقْتًا أَكْثَرَ مِنَ الزَّمَنِ المُتَاحِ لإنجازِهِ؛ حَتَّى يَخْرُجَ بصورَةٍ جيّدَةٍ ومُرْضِيَةٍ للباحثِ أَوَّلًا ثُمَّ للقارئِ. وإِنِّي وَإِنِ اجْتَهَدْتُ فِيهِ فَهُنَاكَ تقصيرٌ واضحٌ أَعْتَرِفُ بِهِ أُوكِلُهُ إِلَى عَجْزِي وجَهْلِي وقِلَّةِ اطِّلَاعِي، فَمَا كَانَ مِنْ خَلَلٍ وَسَهْوٍ فَمِنْ نفسِي والشيطانِ وَمَا كَانَ مِنْ توفيقٍ فَمِنَ اللهِ وَحْدَهُ.

التَّمْهِيدُ

قَبْلَ الدخولِ فِي الحديثِ عَنْ آراءِ ابنِ سنانٍ الخَفَاجِيّ فِي كتابِهِ "سِرّ الفصاحَةِ" لَا بُدَّ أَوَّلًا مِنَ التعريفِ بِهِ وبكتابِهِ بإيجازٍ، ثُمَّ توضيحِ أهمّ المصطلحاتِ الَّتِي عَرَضَتْ فِي البحثِ.

أَوَّلًا: ابنُ سنانٍ الخَفَاجِيُّ (423-466هـ):

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

هُوَ عبدُ اللهِ بْنُ محمدِ بْنِ سعيدِ بْنِ سنانٍ –أبو محمدٍ– الخَفَاجِيُّ الحلبيُّ، شاعرٌ، أديبٌ. وُلِدَ سَنَةَ 423هـ بقلعةِ "عَزَازَ" فِي حَلَبَ، وَكَانَ أبوه مِنْ أَشْرَافِ البلدةِ. أَخَذَ العِلْمَ عَنْ أَبِي العَلَاءِ المَعَرِّيِّ وَغَيْرِهِ. وَكَانَ يَمِيلُ إِلَى التشيُّعِ وَيَنْتَقِدُ أُستاذَهُ لِمَا فِي طريقتِهِ مِنْ غُمُوضٍ وَمَا فِي شِعْرِهِ ونَثْرِهِ مِنْ تكلُّفٍ –كَمَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ فِي كتابِهِ سِرّ الفصاحَةِ–[1]، لَكِنِ الخَفَاجِيُّ يَخْتَلِفُ عَنْ أَبِي العَلاءِ فِي أَنَّهُ قَدْ شَارَكَ فِي الحَيَاةِ السياسيَّةِ فِي عصرِهِ، فَقَدْ كَانَ عَلَى صِلَةٍ بِوَزِيرِ حَلَبَ أَبِي نَصْرٍ محمدِ بنِ النَّحَّاسِ الَّذِي زَكَّاهُ عِنْدَ أَمِيرِ حَلَبَ، فَوَلَّاهُ قلعَةَ عَزَازَ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ راضيًا بِمَا نَالَ مِنَ السُّلطةِ، وَقَدْ بَدَتْ مِنْهُ تصرُّفاتٌ أَحْنَقَتِ الأَمِيرَ عَلَيْهِ، فَاسْتَعْصَى بالقلعَةِ، مِمَّا دَفَعَ الأَمِيرَ إِلَى تدبيرِ مكيدَةٍ لَهُ انْتَهَتْ بِقَتْلِهِ، وَقَدْ حُمِلَ إِلَى مدينَةِ حَلَبَ، وَصَلَّى عَلَيْهِ الأَمِيرُ محمودٌ، وَدُفِنَ فِيهَا. وَكَانَ يَرَى رَأْيَ الشِّيعَةِ الإِمَامِيَّةِ.

وَقَدْ كَانَ الخَفَاجِيُّ واسِعَ الثقافَةِ وَكَانَ شاعرًا بارعًا وَلَهُ دِيوَانٌ صغيرٌ مطبوعٌ سَنَةَ 1316هـ. وَهُوَ أَحَدُ الشعراءِ الَّذِين عُنِيَ البارودِيُّ بالاختيارِ مِنْ أشعارِهِمْ فِي مُخْتَلَفِ الموضوعَاتِ. ويتّضحُ مِنْ أشعارِهِ أَنَّهُ كَانَ يُكْثِرُ مِنَ المَدِيحِ، مِمَّا جَعَلَهُ يَتَّصِلُ بكثيرٍ مِنْ شخصياتِ عصرِهِ وموطنِهِ[2].

ثانيًا: كتابُ سرِّ الفصاحَةِ:

ذَكَرَ الخَفَاجِيُّ أَنَّ الغَرَضَ مِنْ تأليفِ كتابِهِ معرفَةُ حقيقَةِ الفصاحَةِ، والعِلْمُ بسرِّهَا وبيانُ ثَمَرَةِ ذَلِكَ وفائِدَتُهُ لِتَقَعَ الرغبَةُ فِيهِ[3]. وَقَدْ جَمَعَ فِي كتابِهِ فُصُولًا عديدَةً هِيَ: فصلُ الأصواتِ، وفصلُ الحروفِ وفصلُ الكلامِ، وفصلٌ فِي اللغة، ثُمَّ يُفْرِدُ فصْلًا عَنِ العَرَبِ بِاسْمِ وَجْهِ تفضيلِ هَؤُلَاءِ القَوْمِ عَلَى غيرِهِمْ، وفصلٌ فِي الكلامِ فِي الفصاحَةِ، وفصلٌ فِي الألفاظِ المؤلَّفَةِ، وفصلُ الكلامِ فِي المَعَانِي المُفْرَدَةِ، وفصلٌ فِي ذِكْرِ الأقوالِ الفاسدَةِ فِي التفضيلِ بَيْنَ المُتَقَدِّمِينَ والمُحْدَثِينَ، وفَصْلٌ فِيمَا يَحْتَاجُ مُؤَلِّفُ الكلامِ إِلَى معرفَتِهِ. وَقَدْ فَصَّلَ الخَفَاجِيُّ فِي كُلِّ فَصْلٍ. وَيَتَّضِحُ لِقَارِئِ الكتابِ أَنَّ الخَفَاجِيَّ عَالَجَ فُنُونَ البلاغَةِ والبديعِ فِي ثَنَايَا حديثِهِ عَنْ سرِّ الفصاحَةِ إِذْ هِيَ عِنْدَهُ تَشْمَلُ حُسْنَ اللفظِ وحُسْنَ المَعْنَى. وَقَدْ أَثَّرَ هَذَا الكتابُ فِي علماءِ البلاغَةِ الَّذِين جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِ كضياءِ الدِّينِ بن الأَثِيرِ فِي "المَثَلِ السَّائِرِ". ويُلَاحَظُ أَنَّ أسلوبَ الكِتَابِ أَقْرَبُ إِلَى أسلوبِ المُتَأَخِّرِينَ فَهُوَ أسلوبٌ سهلٌ بلاغيٌّ يُسَاعِدُ عَلَى تَرْبِيَةِ مَلَكَةِ النَّقْدِ[4].

ثالثًا: أهمُّ المصطلحاتِ الواردةِ فِي البحثِ:

1- اللفظُ والمَعْنَى:

- **اللفظُ فِي اللغَةِ:** مصدرٌ للفعلِ بمَعْنَى الرَّمْيِ، وَيَتَنَاوَلُ ما لَمْ يَكُنْ صوتًا وحرفًا، وَمَا هُوَ حرفٌ واحدٌ وأكثرُ، مُهْمَلًا كَانَ أَوْ مُسْتَعْمَلًا، صادرًا مِنَ الفَمِ أَوْ لَا، ثُمَّ خُصَّ فِي عُرْفِ اللغَةِ بِمَا صَدَرَ مِنَ الفَمِ مِنَ الصَّوْتِ المعتمِدِ عَلَى المَخْرَجِ

(1) ابن سنان الخفاجيّ: **سر الفصاحة**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1982)، ص: 7 - 8.
(2) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، (مصر: وزارة الثقافة، 1963)، 5/ 96.
(3) الخفاجيّ: **سر الفصاحة**، ص: 14.
(4) عبد الرزاق أبو زيد زايد: **سر الفصاحة لابن سنان الخفاجيّ: دراسة وتحليل**، (مصر: مكتبة الشباب، 1982)، ص: 57.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

حرفًا واحدًا أَوْ أَكْثَرَ، مُهْمَلًا أَوْ مُسْتَعْمَلًا[5].

وَفِي لسانِ العربِ: لَفَظْتُ الشَّيْءَ مِنْ فَمِي أَلْفُظُهُ لَفْظًا رَمَيْتُهُ. يُقَالُ أَكَلْتُ التَّمرَ وَلَفَظْتُ النَّوَاةَ أَيْ رَمَيْتُهَا[6].

وَفِي الاصْطِلَاحِ: هُوَ ما يَتلفَّظُ بِهِ الإنسانُ أَوْ مَنْ فِي حُكْمِهِ مُهْمَلًا كَانَ أَوْ مُسْتَعْمَلًا[7].

- **أَمَّا المَعْنَى لُغَةً:** فَهُوَ مَا يُقْصَدُ بشيْءٍ، وَلَا يُطْلِقُونَ المَعْنَى عَلَى شَيْءٍ إِلَّا إِذَا كَانَ مقصودًا، وَأَمَّا إِذَا فُهِمَ الشيءُ عَلَى سبيلِ التَّبعيَّةِ فَيُسَمَّى مَعْنَى بالعَرَضِ لَا بالذَّاتِ[8]. ومَعْنَى كلِّ كَلامٍ ومَعْنَاتُهُ ومَعْنِيَّتُهُ: مَقْصِدُهُ[9].

وَفِي الاصْطِلَاحِ: هُوَ عبارةٌ عَنْ صورَةِ المَعْنَى الأَوَّلِ الدَّالِ عَلَى المَعْنَى الثَّانِي عَلَى مَا صَرَّحَ بِهِ الشَّرِيفُ الجُرْجَانِيُّ حَيْثُ قَالَ: «إِذَا وَضَعُوا اللفظَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى تفخيمِهِ لَمْ يُرِيدُوا اللفظَ المنطوقَ، وَلَكِنْ مَعْنَى اللفظِ الَّذِي دُلَّ بِهِ عَلَى المَعْنَى الثَّانِي»[10]. «أَمَّا المَعَانِي فِي الصورَةِ الذِّهْنِيَّةِ إِذَا وَقَعَ بِإِزَائِهَا اللفظُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تُقْصَدُ مِنْهُ، وَذَلِكَ مَا يَكُونُ بالوضْعِ، فَإِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بلفظٍ مُفْرَدٍ سُمِّيَ مفردًا، وَإِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بلفْظٍ مُرَكَّبٍ سُمِّيَ مَعْنًى مركبًا»[11]. «والمَعَانِي: هِيَ الصورَةُ الذِّهْنِيَّةُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهَا الألفاظُ والصورُ الحاصلَةُ فِي العقلِ، فَمِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تُقْصَدُ باللفظِ سُمِّيَتْ مَعْنًى، وَمِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تَحْصُلُ مِنَ اللفظِ فِي العقلِ سمِّيَتْ مفهومًا»[12]. «والمَعْنَى هُوَ المفهومُ مِنْ ظاهرِ اللفظِ الَّذِي نَصِلُ إِلَيْهِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ»[13].

مِنَ التعريفاتِ السابقَةِ يَتَّضِحُ أَنَّ طبيعَةَ اللفظِ والمَعْنَى بَيْنَهُمَا تَلَازُمٌ، فَلَا وُجُودَ للفظٍ دُونَ مَعْنًى وَلَا وُجُودَ لمَعْنًى بِدُونِ اللفظِ. فَإِذَا كَانَ المَعْنَى صورَةً ذِهْنِيَّةً فَقَدْ وُضِعَ بِإِزَائِهِ لَفْظٌ هُوَ القَصْدُ مِنْ تِلْكَ الصورَةِ أَوْ هُوِيَّتِهَا.

وَقَدْ وَقَفَ العلماءُ حِيَالَ قضيةِ اللفظِ والمَعْنَى وَأَدْرَكُوا قِيمَةَ الألفاظِ فِي إيضاحِ المَعَانِي وَقَدْ تَحَدَّثَ عَنْ ذَلِكَ الخَفَاجِيُّ فِي كتابِهِ "سِرّ الفصاحَةِ" وَسَيَأْتِي الحديثُ عَنْ آرائِهِ فِي الصفحَاتِ الآتيَةِ.

2- الفصاحَةُ والبلاغَةُ:

فَرَّقَ الخَفَاجِيُّ بَيْنَ الفصاحَةِ والبلاغَةِ بتعريفِ كُلٍّ مِنْهُمَا فالفصاحَةُ هِيَ: «الظهورُ والبيانُ. وَمِنْهَا أَفْصَحَ اللبَنُ إِذَا انْجَلَتْ رَغْوَتُهُ، وَيُقَالُ: أَفْصَحَ الصُّبْحُ إِذَا بَدَا ضَوْؤُهُ، وَأَفْصَحَ كُلُّ شَيْءٍ إِذَا وَضَحَ»[14]. والفصاحَةُ والبلاغَةُ تَرْجِعَانِ إِلَى مَعْنًى واحدٍ وَإِنِ اخْتَلَفَ أَصْلَاهُمَا؛ لِأَنَّ كُلَّ واحدٍ مِنْهُمَا هُوَ الإبانَةُ عَلَى المَعْنَى والإظهارُ لَهُ[15].

([5]) أبو البقاء الكفوي: **الكليات**، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1992)، ص: 795.
([6]) محمد بن مكرم بن منظور: **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، 1955)، مادة لفظ، 7/ 461.
([7]) الشريف الجرجاني: **التعريفات**، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1983)، ص: 192.
([8]) أبو البقاء الكفوي: **الكليات**، ص: 842.
([9]) ابن منظور: **لسان العرب**، مادة عنا، 15/ 106.
([10]) الكفوي: **الكليات**، ص: 795.
([11]) محمد علي التهانوي: **كشاف اصطلاحات الفنون**، (بيروت: دار صادر، د.ت)، 3/ 1084.
([12]) الشريف الجرجاني: **التعريفات**، ص: 220.
([13]) أبو البقاء الكفوي: **الكليات**، ص: 842.
([14]) الخفاجيّ: **سر الفصاحة**، ص: 58.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

ثُمَّ يَقُولُ: «والفرقُ بَيْنَ الفصاحَةِ والبلاغَةِ أَنَّ الفصاحَةَ مَقْصُورَةٌ عَلَى وَصْفِ الألفاظِ، والبلاغَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا وَصْفًا للألفاظِ مع المَعَانِي، لَا يُقَالُ فِي كَلِمَةٍ واحدَةٍ لَا تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى يَفْضُلُ عَنْ مِثْلِهَا بَلِيغَةٍ، وَإِنْ قِيلَ فِيهَا فَصِيحَةٌ وَكُلُّ كلامٍ بليغٍ فصيحٌ، وَلَيْسَ كُلُّ فصيحٍ بَلِيغًا، كالَّذِي يَقَعُ فِيهِ الإسهابُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ»[16]. وَيُلَاحَظُ أَنَّ الخَفَاجِيَّ هُوَ مِنْ أوائِلِ مَنْ فَصَّلَ القولَ فِي الفصاحَةِ وَقَدْ قَسَّمَهَا إِلَى قِسْمَيْنِ هُمَا: فَصَاحَةُ الكلمَةِ المُفْرَدَةِ، وفصاحَةُ الكلمَاتِ المُرَكَّبَةِ وَفِيما يَأْتِي عَرْضٌ لِذَلِكَ.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ:

الأَلْفَاظُ

بالنَّظَرِ فِي قضيَّةِ اللفظِ والمَعْنَى عِنْدَ الخَفَاجِيّ فِي كتابِهِ "سِرّ الفصاحَةِ" يُلَاحَظُ أَنَّهُ قَسَّمَ الفصاحَةَ إِلَى قِسْمَيْنِ: الأَوَّلُ: يَخُصُّ اللفظَةَ المُفْرَدَةَ، والثَّانِي: يَخُصُّ الكلامَ المُرَكَّبَ. وَفِيما يَأْتِي بَيَانُ هَذِهِ الأقسامِ بِإِيجَازٍ والنَّظَرُ فِي آراءِ العلماءِ والنُّقَّادِ الَّذِينَ تَأَثَّرَ بِهِمُ الخَفَاجِيُّ أَوْ كَانَتْ لَهُمْ وُجْهَةُ نَظَرٍ مُخَالِفَةٌ لِمَا طَرَحَهُ فِي كتابِهِ.

أَوَّلًا: فصاحَةُ الألفاظِ المُفْرَدَةِ

يَرَى الخَفَاجِيُّ أَنَّ هُنَاكَ ثَمَانِيَةَ شروطٍ لفصاحَةِ اللفظَةِ المُفْرَدَةِ هِيَ:

1. أَنْ تَكُونُ اللفظةُ مُؤَلَّفَةً مِنْ حروفٍ مُتباعدَةِ المَخَارِجِ وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّ الحروفَ أصواتٌ تَجْرِي «مِنَ السَّمْعَ مَجْرَى الألوانِ مِنَ البَصَرِ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الألوانَ المتباينَةَ إِذَا جُمِعَتْ كَانَتْ فِي النَّظَرِ أَحْسَنَ مِنَ الألوانِ المُتَقَارِبَةِ، وَلِهَذَا كَانَ البَيَاضُ مَعَ السَّوَادِ أَحْسَنَ مِنْهُ مَعَ الصُّفْرَةِ لِقُرْبِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأصفرِ، وَبُعْدِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَسْوَدِ» وَمِنَ الأَمْثِلَةِ عَلَى ذَلِكَ لَفْظَةُ "الهَعْخَع"[17].

وَلَكِنْ رَأْيُ الخَفَاجِيّ هَذَا وَجَدَ رفضًا مِنَ ابْنِ الأَثِيرِ الَّذِي وَضَّحَ بِدَوْرِهِ قَضِيَّةَ تباعُدِ المخارِجِ وَقَالَ: «أَمَّا تباعُدُ المَخَارِجِ فَإِنَّ معظمَ اللغَةِ العربيَّةِ دَائِرٌ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الوَاضِعَ قَسَّمَهَا فِي وَضْعِهِ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ، ثُلَاثِيًّا، ورُبَاعِيًّا، وخُمَاسِيًّا والثُّلَاثِيُّ مِنَ الألفاظِ هُوَ الأكثرُ، وَلَا يُوجَدُ مَا يُكْرَهُ استعمالُهُ إِلَّا الشاذُّ النادرُ، وَأَمَّا الرُّبَاعِيُّ فَإِنَّهُ وَسَطٌ بَيْنَ الثُّلَاثِيّ والخُمَاسِيّ فِي الكَثْرَةِ عددًا واستعمالًا، وَأَمَّا الخُمَاسِيُّ فَإِنَّهُ الأَقَلُّ وَلَا يُوجَدُ فِيهِ مَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا الشاذُّ النادِرُ، وَعَلَى هَذَا التقديرِ فَإِنَّ أَكْثَرَ اللغةِ مُسْتَعْمَلٌ عَلَى غَيْرِ مَكْرُوهٍ، وَلَا تَقْتَضِي حِكْمَةُ هَذِهِ اللغَةِ الشريفَةِ الَّتِي هِيَ سَيِّدَةُ اللغاتِ إِلَّا ذَلِكَ، وَلِهَذَا أَسْقَطَ الوَاضِعُ حروفًا كثيرَةً فِي تأليفِ بعضِهَا مَعَ بَعْضٍ اسْتِثْقَالٍ واسْتِكْرَاهٍ، فَلَمْ يُؤَلِّفْ بَيْنَ الجيمِ والقَافِ، وَلَا بَيْنَ اللامِ والراءِ، وَلَا بَيْنَ الزَّايِ والسينِ وَكُلُّ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى عِنَايَتِهِ بتأليفِ المتباعِدِ المَخَارِجِ»[18].

([15]) أبو هلال العسكري: **الصناعتين**، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (طبعة عيسى البابي الحلبي: دار إحياء الكتب العربية، 1952)، ص: 7.

([16]) **سر الفصاحة**، ص: 59.

([17]) **سر الفصاحة**، ص: 64.

([18]) ضياء الدين بن الأثير: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (القاهرة: دار نهضة مصر، د. ت) 1/ 172.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

2. أَنْ تَجِدَ للفظةِ فِي السَّمْعِ حُسْنًا وَمَزِيَّةً عَلَى غَيْرِهَا وَإِنْ تَسَاوَيَا فِي التأليفِ مِنَ الحروفِ المتباعِدَةِ وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّكَ تَجِدُ لِبَعْضِ النَّغَمِ والألوانِ حُسْنًا يُتَصَوَّرُ فِي النَّفْسِ وَيُدْرَكُ بِالبَصَرِ والسَّمْعِ دُونَ غَيْرِهِ، فَالنَّفْسُ قَدْ تَأْلَفُ لَحْنًا وَتُفَضِّلُهُ عَلَى الآخَرِ وَكَذَلِكَ مَا يَقَعُ فِي تَفْضِيلِ بَعْضِ الثِّيَابِ عَلَى الأُخْرَى[19] وَقَدِ اسْتَشْهَدَ بِأَمْثِلَةٍ كثيرَةٍ مِنْهَا قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ:

مُبَارَكُ الاسْمِ أَغَرُّ اللَّقَبْ كَرِيمُ الجِرِشَّى شَرِيفُ النَّسَبْ

فكلمَةُ الجِرِشَّى، ثقيلَةٌ تَنْفِرُ مِنْهَا الآذانُ، وَتَنْبُو عَنْهَا الأَسْمَاعُ[20].

وَهُنَا يُشِيرُ الخَفَاجِيُّ إِلَى عُنْصُرِ "الذَّوْقِ" فَيَجْعَلُهُ مقياسًا مِنْ مَقَايِيسِ الفصاحَةِ وهَذَا مَا تَنَاوَلَهُ القَزْوِينِيُّ فِي فصاحَةِ المُفْرَدِ حِينَمَا تَحَدَّثَ عَنِ الكلمَةِ الَّتِي تَمُجُّهَا الأسماعُ مِثْلُهَا مِثْلُ الأصواتِ المُنْكَرَةِ[21].

وَيُلَاحَظُ أَنَّ ابنَ الأَثِيرِ أَيَّدَ هَذَا القَوْلَ فَذَكَرَ أَنَّهُ رَأَى جَمَاعَةً مِنَ الجُهَّالِ تَرَى أَنَّ الألفاظَ كلَّهَا حَسِنَةٌ وَلَا مَزِيَّةَ لِأَحَدِهَا عَلَى الأُخْرَى حَتَّى إِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ التَّفْرِيقَ بَيْنَ بعضِ الألفاظِ مِثْلَ لَفْظَةِ الغُصْنِ ولَفْظَةِ العُسْلُوجِ، وَسَاقَ عَلَى ذَلِكَ أمثلَةً عديدَةً وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَعَابَهُمْ[22].

3. أَنْ تَكُونُ الكلمَةُ غَيْرَ مُتَوَعِّرَةٍ وَلَا وَحْشِيَّةً كَمَا قَالَ ذَلِكَ الجَاحِظُ[23]، وهَذِهِ القَاعِدَةُ ذَكَرَهَا الجَاحِظُ مِنْ قَبْلُ[24]، كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

لَقَدْ طَلَعَتْ فِي وَجْهِ مِصْرَ بِوَجْهِهِ بِلَا طَائِرٍ سَعْدٍ وَلَا طَائِرٍ كَهِلِ[25]

فكلِمَةُ (كَهِلِ) –فِي رَأْيِهِ– وَحْشِيَّةٌ وهَذَا شَرْطٌ –وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُنْكَرِ الحُسْنِ– إِلَّا أَنَّهُ مِنَ الواجِبُ عَدَمُ إطلاقِ هَذَا التعميمِ؛ لِأَنَّ قَضِيَّةَ الغَرَابَةِ أَمْرٌ نِسْبِيٌّ، وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِالأَرْضِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ للقَارِئِ[26].

وَقَدْ فَسَّرَ الخَفَاجِيُّ مُرَادَ الشعراءِ فِي الإتيانِ بالغريبِ الوَحْشِيِّ فِي أشعارِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَرَادُوا الإِغْرَابَ حَتَّى يَتَسَاوَى فِي الجَهْلِ بِكَلَامِهِمُ العَامَّةُ وَأَكْثَرُ الخَاصَّةِ، وَلَكِنْ هَذَا مِنْ أَقْبَحِ مَا وَقَعَ لَهُمْ.

وَقَالَ: «وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَا جماعَةً يَتَعَمَّدُونَ هَذَا فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنْ سُرِرْتُمْ بمعرفَتِكِمْ وَحْشِيَّ اللغَةِ فَيَجِبُ أَنْ تَغْتَمُّوا بسوءِ حظِّكِمْ مِنَ البلاغة وَجَرَى بَيْنَ أصحابِنَا فِي بعضِ الأيامِ ذِكْرُ شيخِنَا أَبِي العَلاءِ بنِ سُلَيْمَانَ فَوَصَفَهُ واصفٌ مِنَ الجماعَةِ بالفصاحَةِ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ كَلَامَهُ غَيْرُ مفهومٍ لكثيرٍ مِنَ الأدباءِ فَعَجِبْنَا مِنْ دَلِيلِهِ وَإِنْ كُنَّا لَمْ نَخَالِفْهُ فِي المَذْهَبِ، وَقُلْتُ لَهُ إِنْ كَانَتِ الفصاحَةُ

([19]) **سر الفصاحة**، ص: 65، 64.

([20]) المصدر السابق، ص: 66.

([21]) محمد بن عبد الرحمن بن عمر أبو المعالي جلال الدين الخطيب القزويني: **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق: بهيج غزواني، (بيروت: دار إحياء العلوم، 1998)، ط4، 1/ 8.

([22]) ابن الأثير: **المثل السائر**، 1/ 170.

([23]) **سر الفصاحة**، ص: 66.

([24]) الجاحظ: **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1998)، 1/ 75-88.

([25]) **ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي**، تحقيق: محمد عزام، (القاهرة: دار المعارف، د. ت)، ج4، ص: 523، ورواية الديوان: «بلا طائر سعد ولا طائر كهل».

([26]) وليد سراقبي: «مفهوم الفصاحة بين الخفاجيّ وعبد القاهر الجرجاني»، **مجلة التراث العربي**، سوريا، 1988م، مج8، ع:31، ص62.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

عِنْدَكَ بالألفاظِ الَّتِي يَتَعَذَّرُ فَهْمُهَا فَقَدْ عَدَلْتَ عَنِ الأصلِ المَقْصُودِ أَوَّلًا بالفصاحَةِ، الَّتِي هِيَ البيانُ والظهورُ، وَوَجَبَ عِنْدَكَ أَنْ يَكُونَ الأخرسُ أَفْصَحَ مِنَ المُتَكَلِّمِ؛ لِأَنَّ الفَهْمَ مِنْ إِشَارَاتِهِ بَعِيدٌ عَسِيرٌ، وَأَنْتَ تَقُولُ كُلَّمَا كَانَ أَغْمَضَ وَأَخْفَى كَانَ أَبْلَغَ وَأَفْصَحَ. وَعَارَضَهُ أَبُو العَلَاءِ صَاعِدُ بْنُ عِيسَى الكَاتِبُ وَقَالَ:صَدَقْتَ إِنَّنَا لَا نَفْهَمُ عَنْهُ كثيرًا مِمَّا يَقُولُ إِلَّا أَنَّهُ عَلَى قياسِ قولِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَيْمُونُ الزِّنْجِيُّ الَّذِي نَعْرِفُهُ أَفْصَحَ مِنْ أَبِي العَلاءِ لِأَنَّهُ يَقُولُ مَا لَا نَفْهَمُهُ نَحْنُ وَلَا أَبُو العَلَاءِ فَأَمْسَكَ»[27]. وَمِمَّا يُؤَيِّدُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الخَفَاجِيُّ مَا قَالَهُ ابْنُ رَشِيقٍ الَّذِي نَادَى باستِقْبَاحِهِ للوَحْشِيِّ الَّذِي يَنْفِرُ مِنْهُ السَّمْعُ «قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ المَهْدِيّ لعبدِ اللهِ بْنِ صَاعِدٍ كَاتِبِهِ: إِيَّاكَ وَتَتَبُّعَ الوَحْشِيَّ مِنَ الكلام طمعًا فِي نَيْلِ البلاغَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ هِيَ العِيُّ الأَكْبَرُ، عَلَيْكَ بِمَا سَهُلَ مِنْ تَجَنُّبِكَ ألفاظَ السّفَّلِ»[28].

وَتَحَدَّثَ العَسْكَرِيُّ فِي غَرَابَةِ المَعْنَى ووَحْشِيِّ الكَلامِ فَقَالَ: «وَقَدْ غَلَبَ الجهلُ عَلَى قومٍ فَصَارُوا يَسْتَجِيدُونَ الكَلامَ إِذَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِكَدٍّ وَيَسْتَفْصِحُونَهُ إِذَا وَجَدُوا ألفاظَهُ كَذَّةً غَلِيظَةً وَجَاسِيَةً غَرِيبَةً ويَسْتَحْقِدُونَ الكَلامَ إِذَا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبًا وَسَهْلًا حُلْوًا، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ السهلَ أَمْنَعُ جَانِبًا وَأَعَزُّ مَطْلَبًا وَهُوَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا وَأَعْذَبُ مُسْتَمَعًا، وَلِهَذَا قِيلَ أَجْوَدُ الكَلامِ السَّهْلُ المُمْتَنِعُ»[29].

4. أَنْ تَكُونُ الكلمَةُ غَيْرَ سَاقِطَةٍ عَامِيَّةٍ، وَأَصْلُهَا عِنْدَ الجَاحِظِ وَبِذَلِكَ يُصَرِّحُ الخَفَاجِيُّ[30]، وَمِثَالُهُ مَا قَالَهُ أَبُو تَمَّامٍ:

جَلَيْتَ وَالمَوْتُ مُبْدٍ حُرَّ صَفْحَتِهِ وَقَدْ تَقَرْعَنَ فِي أَفْعَالِهِ الأَجَلُ[31]

لَفْظَةُ (تَقَرْعَنَ) عَامِيَّةٌ، فَعَادَةُ العَامَّةِ أَنْ يَقُولُوا –تَقَرْعَنَ فُلَانٌ– إِذَا وَصَفُوهُ بالجَبْرِيَّةِ[32].

وَمَا قَالَهُ الخَفَاجِيُّ قَالَ بِهِ الآمِدِيُّ مِنْ قَبْلُ ناقدًا لِأَبِي تَمَّامٍ حَيْثُ قَالَ: «وَقَدْ تَقَرْعَنَ فِي أَفْعَالِهِ الأَجَلُ، مَعْنًى فِي غَايَةِ الرَّكَاكَةِ والسخافَةِ وَهُوَ مِنْ ألفاظِ العامَّةِ»[33]

5. أن تَكُونُ الكلمَةُ بَعِيدَةً عَنِ الشذوذِ جاريَةً عَلَى العُرْفِ العَرَبِيّ الصَّحِيحِ، وَيَشْمَلُ هَذَا الشَّرْطُ كُلَّ مَا يُنْكِرُهُ أَهْلُ اللغَةِ وعلماءُ النَّحْوِ مِنَ التصرُّفِ الفاسِدِ فِي الكلمَةِ فَيُعَبَّرُ بِهَا فِي غَيْرِ مَا وُضِعَتْ له[34] كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

يَشُقُّ عَلَيْهِ الرِّيحُ كُلَّ عَشِيَّةٍ جُيُوبَ الغَمَامِ بَيْنَ بِكْرٍ وَأَيِّمِ[35]

فَوَضَعَ الأَيِّمَ مَكَانَ الثَّيِّبِ وَلَيْسَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، لِأَنَّ العَرَبَ لَا تَقُولُ للثَّيِّبِ أَيِّمٌ وَإِنَّمَا الأَيِّمُ الَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا[36].

([27]) **سر الفصاحة**، ص: 71.

([28]) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: **العمدة في نقد الشعر**، تحقيق: عفيف نايف حاطوم، (بيروت: دار صادر، 2003)، ط1، 2/ 518.

([29]) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري: **الصناعتين الكتابة والشعر**، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: المكتبة العصرية، 1986)، 1/ 10.

([30]) **سر الفصاحة**، ص: 73.

([31]) **ديوان أبي تمام**، 3/ 216، ورواية الديوان: «في أوصاله».

([32]) **سر الفصاحة**، ص: 73.

([33]) أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي: **الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري**، تحقيق: عبد الله المحارب، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1990)، ط1، 3/ 79.

([34]) المصدر السابق، ص: 77.

([35]) **ديوان أبي تمام**، 3/ 253.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

وَرَأَى ابْنُ الأَثِيرِ أَنَّ جَرَيَانَ اللفظَةِ عَلَى العُرْفِ العربِيّ لَيْسَ مِمَّا يُوجِبُ لَهَا حُسْنًا وَلَا قُبْحًا وَإِنَّمَا يَقْدَحُ فِي مَعْرِفَةِ مُسْتَعْمِلِهَا بِمَا يَنْقُلُهُ مِنَ الألفاظِ، فَكَيْفَ يُعَدُّ ذَلِكَ مِنْ جُمْلَةِ الأوصافِ الحَسِنَةِ[37]

6. أَلَّا تَكُونَ الكلمَةُ قَدْ عُبِّرَ بِهَا عَنْ أمرٍ آخَرَ يُكْرَهُ ذِكْرُهُ، فَإِذَا وَرَدَتْ وَهِيَ غَيْرُ مقصودَةٍ بِهَا ذَلِكَ المَعْنَى قَبُحَتْ وَإِنْ كَمُلَتْ فِيهَا صِفَاتُ الفصاحَةِ السابقَةِ كَقَوْلِ عُرْوَةَ بنِ الوَرْدِ:

قُلْتُ لِقَوْمٍ فِي الكَنِيفِ تَرَوَّحُوا عَشِيَّةَ بِتْنَا عِنْدَ مَاوَانَ رُزَّحِ[38]

فالكَنِيفُ أَصْبَحَتْ تَدُلُّ فِيمَا بَعْدَ عَلَى السَّاتِرِ الَّذِي يَسْتُرُ الحَدَثَ، وهَذَا الشرطُ لَا يُمْكِنُ التسليمُ بِهِ فَنَتَّهِمَ عُرْوَةَ بعدَمِ الفصاحَةِ لِأَنَّ الكلمة قَدْ أَخَذَتْ مِنَ المَعَانِي مَا لَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ قَبْلُ[39].

7. أَنْ تَكُونُ الكلمَةُ قليلَةَ الحروفِ، وَإِلَّا خَرَجَتْ عَنْ وُجُوهِ الفصاحَةِ[40] كَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:

إِنَّ الكِرَامَ بِلَا كِرَامٍ مِنْهُمُ مِثْلُ القُلُوبِ بِلَا سُوَيْدَاوَاتِهَا[41]

فَكَلِمَةُ "سُوَيْدَاوَاتِهَا" غَيْرُ فصيحَةٍ فِي رَأْيِ الخَفَاجِيّ وَذَلِكَ لكَثْرَةِ حروفِهَا. وَقَدِ اعْتَرَضَ عَلَيْهِ ابْنُ الأَثِيرِ وَقَالَ: وَمِنْ أوصافِ الكلمَةِ أَنْ تَكُونَ مُؤَلَّفَةً مِنْ أَقَلِّ الأَوْزَانِ تركيبًا وَمَثَّلَ لَهُ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ وَقَالَ إِنَّ لَفْظَةَ سُوَيْدَاوَاتِهَا طَوِيلَةٌ فَلِهَذَا قَبُحَتْ وَلَيْسَ الأَمْرُ كَمَا ذَكَرَهُ فَإِنَّ قُبْحَ هَذِهِ اللَّفْظَةِ لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ طُولِهَا وَإِنَّمَا هُوَ لِأَنَّهَا فِي نَفْسِهَا قَبِيحَةٌ وَقَدْ كَانَتْ وَهِيَ مُفْرَدَةٌ حَسِنَةٌ فَلَمَّا جُمِعَتْ قَبُحَتْ لَا بِسَبَبِ الطُّولِ، وَدَلَّلَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي القرآنِ الكريمِ مِنْ ألفاظٍ طُوَالٍ وَهِيَ حَسِنَةٌ مِثْلُ ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ وَعَدَدُ أَحْرُفِهَا تِسْعَةٌ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وَعَدَدُ حُرُوفِهَا عَشْرَةٌ وَكِلْتَاهُمَا حَسِنَةٌ رَائِقَةٌ[42].

وَمِنْ هُنَا نُدْرِكُ أَنَّ ابنَ الأَثِيرِ يَرَى أَنَّ الكَرَاهَةَ والقُبْحِ فِي الكلمَةِ لَيْسَ فِي عَدَدِ حُرُوفِهَا وَإِنَّمَا فِي ثِقَلِهَا فِي اللسانِ مِثْلَ قَوْلِ امْرِئِ القَيْسِ:

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى العُلَا تَضِلُّ المَدارَى فِي مُثَنًّى وَمُرْسَلِ[43]

يُلَاحَظُ أَنَّ لَفْظَةَ "مُسْتَشْزِرَاتٌ " يَقْبُحُ استِعْمَالُهَا وَيَشُقُّ النُّطْقُ بِهَا، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ طَوِيلَةً فَلَوْ قُلْنَا مُسْتَنْكِرَاتٌ أَوْ مُسَتَنْقِرَاتٌ عَلَى وَزْنِهَا لَمَا كَانَ فِي هَاتَيْنِ اللَّفْظَتَيْنِ ثِقَلٌ وَلَا كَرَاهَةٌ[44].

8. أَلَّا تُسْتَعْمَلُ الكلمَةُ المصغَّرَةُ للتعبِيرِ عَنْ مَعْنًى لطيفٍ أَوْ خَفِيٍّ فِي مَعَانٍ تُنَاقِضُ المَعَانِي السابقَةَ كالتعظيمِ والتهويلِ

([36]) **سر الفصاحة،** ص: 78.
([37]) ابن الأثير: **المثل السائر،** 1/ 175.
([38]) أبو الفرج الأصفهاني: **الأغاني،** (بيروت: نسخة مصورة عن دار الكتب، نشر مؤسسة جمال للطباعة)، 14/ 55. وللبيت رواية أخرى: أقول لقوم ...
([39]) وليد سراقبي: **«مفهوم الفصاحة بين الخفاجيّ وعبد القاهر الجرجاني»**، ص: 63.
([40]) **سر الفصاحة،** ص: 87.
([41]) **ديوان المتنبي بشرح البرقوقي،** (بيروت: دار الكتاب العربي، 1975)، 1/ 352.
([42]) ابن الأثير: **المثل السائر،** 1/ 205.
([43]) **ديوان امرئ القيس**: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (مصر: دار المعارف، 1984)، 1/ 17.
([44]) **المثل السائر،** 1/ 206، 205.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

كَمَا فِي قَوْلِ الشاعِرِ[45]:

وكُلُّ أُنَاسٍ سَوْفَ تدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأَنَامِلُ[46]

اسْتَعْمَلَ الشاعِرُ لَفْظَةَ (دُوَيْهِيَةٌ) مُصَغَّرَةً فِي مَعْنَى التعظيمِ والتهويلِ. والمُلَاحَظُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ شرطًا عامًّا –في رَأْيِي– لِأَنَّ الألفاظَ المصغَّرَةَ قليلَةٌ فِي اللغَةِ العربيَّةِ، والتعظيمُ فِي كلامِ العربِ مُطَّرِدٌ فِي اللَّفْظِ المُصَغَّرِ كَقَوْلِ الحُبَابِ بْنِ المُنْذِرِ فِي يَوْمِ السَّقِيفَةِ: «أَنَا جُذَيْلُهَا المُحَكَّكُ وعُذَيْقُهَا المُرَجَّبُ»[47].

وَبَعْدَ أَنْ عَرَضَ الخَفَاجِيُّ شُرُوطَ فصاحَةِ الألفاظِ المُفْرَدَةِ نَجِدُهُ يَطْلُبُ مِنَ القَارِئِ أَنْ يَلْتَمِسَ لَهُ العُذْرَ فِي حديثِهِ عَنْ فصاحَةِ اللفظِ المُفْرَدِ مُحْتَجًّا بِأَنَّ تِلْكَ القَوَاعِدَ إِنَّمَا حَصَلَتْ لَهُ بالدُّرْبَةِ فَلَمْ يَأْخُذْهَا مِنْ كِتَابٍ مُؤَلَّفٍ وَلَا قَوْلٍ يُرْوَى، وَلَا وَجَدَهُ مجموعًا فِي مكانٍ[48].

وَيُلَاحَظُ أَنَّ المقاييسَ السابقَةَ فَضْفَاضَةٌ وَكَانَتْ مَوْضِعَ انْتِقَادٍ قديمًا وحديثًا، فَإِذَا كَانَ بعضُ هَذِهِ الشروطِ مُتَّفَقًا عَلَيْهِ يَقُومُ عَلَى ضَوَابِطَ لُغَوِيَّةٍ دَقِيقَةٍ فَإِنَّ «بَعْضَهَا الآخَرَ إِمَّا نِسْبِيٌّ يُمْكِنُ أَنْ يَخْتَلِفَ فِي تَقْدِيرِهِ النَّاسُ كالشَّرْطِ الثَّانِي أَوْ فِي غَيْرِ مَحِلِّهِ إِذْ لَا دَخْلَ لِلَّفْظِ فِيهِ كَالشَّرْطِ الثَّامِنِ»[49].

ثَانِيًا: الألفاظُ المُؤَلَّفَةُ:

يَرَى الخَفَاجِيُّ «أَنَّ الشُّرُوطَ العالِقَةَ بالتأليفِ هِيَ أَقْسَامٌ أَرْبَعَةٌ: قِسْمٌ يَشْتَرِكُ مَعَ شروطِ اللفظَةِ المُفْرَدَةِ، وَقِسْمَانِ كَالأَصْلَيْنِ يَتَفَرَّعُ مِنْهُمَا شُرُوطٌ عِدَّةٌ تَتَعَلَّقُ بِلُحْمَةِ الكَلِمَاتِ فِي السِّيَاقِ عَلَى مُسْتَوَيَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَرَابِعٌ يَبْدُو فِي أَشْكَالٍ مِنْ تَآلُفِ الوَحَدَاتِ فِي السِّيَاقِ أَيْضًا، إِلَّا أَنَّ تَعَلُّقَ المَعْنَى فِيهِ باللفظِ عَبْرَ مِحْوَرٍ عَمُودِيٍّ إِنْ صَحَّ الوَصْفُ، هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ يَخُصُّ هَذَا القِسْمِ بِوَصْفِ "الفصاحَةِ والبلاغَةِ"»[50].

أَمَّا فِيمَا يَخُصُّ المُتَّفِقَ مَعَ شروطِ اللفظَةِ المُفْرَدَةِ، فَمَنْ أَبْرَزَهُ شَرَطَ تَأْلِيفَ اللفظَةِ مِنْ حُرُوفٍ متباعِدَةِ المَخَارِجِ، وانْعِدَامُهُ فِي التأليفِ أَقْبَحُ «وَذَلِكَ أَنَّ اللفظَةَ المُفْرَدَةَ لَا يَسْتَمِرُّ فِيهَا تَكْرَارُ الحَرْفِ الواحِدِ أَوْ تَقَارُبُ الحَرْفِ مِثْلُ مَا يَسْتَمِرُّ فِي الكَلامِ المُؤَلَّفِ إِذَا طَالَ واتَّسَعَ وَمِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

([45]) **سر الفصاحة**، ص: 89.

([46]) نجم الدين محمد بن الحسن الرضي الإستراباذي: **شرح شافية ابن الحاجب**، تحقيق: محمد نور الحسن وآخرون، (لبنان: دار الكتب العلمية، 1395)، 1/ 191.

([47]) **لسان العرب**، مادة (عذق).

([48]) **سر الفصاحة**، ص: 93.

([49]) حمادي صمود: **التفكير البلاغي** عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس، (منشورات الجامعة التونسية: المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1981)، ص: 444. وشوقي ضيف: **البلاغة تطور وتاريخ**، (القاهرة: دار المعارف، 1965) ص: 327، 326.

([50]) الأخضر جمعي: **التفكير النقدي والبلاغي عند العرب**، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2001)، ص: 109.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

لَوْ كُنْتَ كَتَمْتَ الحُبَّ كُنْتَ كَمَا كُنَّا نَكُونُ وَلَكِنْ ذَاكَ لَمْ يَكُنْ[51]

فقَالَ: وَلَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَى دليلٍ عَلَى قُبْحِهِ للتَّكْرَارِ أَكْثَرَ مِنْ سَمَاعِهِ»[52].

وَإِلَى جَانِبِ الثِّقَلِ فِي النُّطْقِ نَجِدُ أيضًا كَرَاهَةَ اللَّفْظَةِ فِي السمعِ والنُّفُورِ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الكَلِمَاتِ، وَقَدْ أَرْجَعَ ذَلِكَ إِلَى التَّنَافُرِ، وَمِثَالُ ذَلِكَ:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ[53]

وَقَدْ عَدَّ ابْنُ الأَثِيرِ هَذَا البَيْتَ مِنَ المُعَاضَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ وَقَالَ: «تَخْتَصُّ بِتَكْرِيرِ الحُرُوفِ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِتَكْرِيرِ الألفاظِ وَلَا بِتَكْرِيرِ المَعَانِي وَإِنَّمَا هُوَ تَكْرِيرُ حَرْفٍ وَاحِدٍ أَوْ حَرْفَيْنِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ ألفاظِ الكَلَامِ المَنْثُورِ أَوِ المَنْظُومِ فَيَثْقُلُ حِينَئِذٍ النُّطْقُ بِهِ»[54].

وَقَدْ تَحَدَّثَ الجَاحِظُ قَبْلَهُ عَنْ هَذَا البَيْتِ قائلًا: «وَمِنْ ألفاظِ العَرَبِ ألفاظٌ تَنَافُرٍ وإن كَانَتْ مَجْمُوعَةً فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ لَمْ يَسْتَطِعِ المُنْشِدُ إِنْشَادَهَا إِلَّا بِبَعْضِ اسْتِكْرَاهٍ»[55].

واسْتَقْبَحَ الخَفَاجِيُّ تَكْرِيرَ الكَلِمَةِ وَقَالَ: «إِنَّهُ مِنْ أَقْبَحِ مَا يَكُونُ مِنَ التَّكْرِيرِ وَأَشْنَعِهِ»[56] وَذَلِكَ قَوْل أَبِي الطَّيِّبِ:

العَارِضُ الهَتِنُ ابْنُ العَارِضِ الهَتِنِ ابْنِ العَارِضِ الهَتِنِ ابْنِ العَارِضِ الهَتِنِ[57]

وإِذَا كَانَ لَا عَلَاقَةَ للتأليفِ بالشرطِ الثَّانِي والثالثِ والرابعِ إِلَّا مَا يَتَحَقَّقُ فِيهِ مِنْ حُسْنٍ وقُبْحٍ تَبَعًا لِمَا يُثِيرُهُ التَّوَاتُرُ والتَّرَادُفُ فِي استِعْمَالِ هَذَا الصِّنْفِ أَوْ ذَاكَ، تَمَامًا كَالشَّرْطَيْنِ السَّابِعِ وَهُوَ اجتِنَابُ الكَلِمَةِ الكَثِيرَةِ الحُرُوفَ، والثَّامِنِ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بالتصغيرِ فَهُوَ لَا يَتَعَدَّى الكلِمَةَ بانْفِرَادِهَا[58]، فَإِنَّ للشَّرْطَيْنِ الخامِسِ والسَّادِسِ عَلَاقَةً بالتأليفِ ذَلِكَ أَنَّ الشرطَ الخامِسَ يَنُصُّ عَلَى أَنْ تَكُونَ الكلمَةُ جَارِيَةً عَلَى العُرْفِ العَرَبِيِّ الصحيحِ[59]، وَلَا يَتِمُّ للمتكلمِ ذَلِكَ حَتَّى يَضَعَ كُلَّ اسْمٍ فِي مَوْضِعِهِ وَيَلْفِظُ بِهِ عَلَى حَدِّ مَا يَلْفِظُ بِهِ أَهْلُهُ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ حَتَّى يُورِدَ اللفظُ فِي سياقٍ مُعَيَّنٍ، وَبِذَلِكَ يَدْخُلُ الإعرابُ فِيهِ لِأَنَّ مَعَانِيَ الكلامِ تَتَعَلَّقُ بِهِ، وَهُوَ الدَّلِيلُ

(51) شهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح الأبشيهي: **المستطرف في كل فن مستظرف**، تحقيق: مفيد محمد قميحة، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1986)، ط2، 1/ 96.
(52) **سر الفصاحة**، ص: 97.
(53) قيل البيت من الرجز ولا يعرف قائله ويقال إنه من شعر الجن. بدر الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السبيلي الحنفي: **آكام المرجان في أحكام الجان**، تحقيق: إبراهيم محمد الجمل، (القاهرة: دار مكتبة القرآن مصر، د.ت)، 1/ 192.
(54) ابن الأثير: **المثل السائر**، 1/ 309.
(55) أبو عثمان الجاحظ: **البيان والتبيين**، 1/ 49
(56) سر الفصاحة: ص: 102
(57) **ديوان المتنبي**، 1/ 319.
(58) **سر الفصاحة**، ص: 107-110.
(59) المصدر السابق، ص: 108.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

عَلَى المقصودِ مِنْهَا، وَبِهِ يَزُولُ اللَّبْسُ والجَوَازُ فِيهَا[60]، وَبِهَذَا التَّصَوُّرُ يَكَادُ يَخْتَصُّ الشَّرْطُ الخَامِسُ بالتأليفِ رَغْمَ مَا يُوحِي بِهِ إِلْحَاحُهُ عَلَى مُجَارَاةِ العُرْفِ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَشْمَلَ الخُرُوجَ عَنِ القياسِ فِي بِنْيَةِ الكلِمَةِ أَيْضًا، خَاصَّةً أَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى تَجَنُّبِ الشُّذُوذِ فِي الكلمَةِ، أَوْ أَنْ تَكُونَ اللفظَةُ بِعَيْنِهَا غَيْرَ عَرَبِيَّةٍ[61].

أَمَّا الشَّرْطُ السَّادِسُ فَلَا يَكَادُ يَكُونُ خالصًا إِلَّا للتأليفِ إِذْ إِنَّ استِعْمَالَ الكَلِمَةِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ أَمْرٍ آخَرَ يُكْرَهُ ذِكْرُهُ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا فِي السِّيَاقِ[62].

ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الشُّرُوطِ الخاصَّةِ بالتأليفِ، فَيَبْسُطُهَا فِي أَصْلَيْنِ كَبِيرَيْنِ يَحْتَوِي كُلٌّ مِنْهُمَا جُمْلَةَ مَسَائِلَ يَنْتَظِمُهَا جَوْهَرُ الانْضِوَاءِ تَحْتَ الأَصْلِ الوَاحِدِ، ثُمَّ يَخْتِمُهَا بِشُرُوطٍ مُشْتَرَكَةٍ بَيْنَ الفصاحَةِ والبلاغَةِ؛ وَهُوَ يَعِي انْضِوَاءَ هَذِهِ الشروطِ تَحْتَ ظِلِّ الأَقْسَامِ أَوِ الأُصُولِ الجامِعَةِ، حَيْثُ يُبَاشِرُهَا بِقَوْلِهِ: «إِنَّ أَحَدَ هَذِهِ الأُصُولِ وَضْعُ الألفاظِ مَوْضِعَهَا حَقِيقَةً أَوْ مجازًا لَا يُنْكِرُهُ الاستِعْمَالُ وَلَا يَبْعُدُ فَهْمُهُ»[63]. وهَذَا الأَصْلُ جَامِعٌ لِكَثِيرٍ مِنَ المبادِئِ المُتَعَلِّقَةِ بِمُرَاعَاةِ الانتِظَامِ السليمِ للوَحَدَاتِ التَّرْكِيبِيَّةِ وَوَضْعِهَا فِي مَوَاضِعِهَا الصحيحَةِ، وَإِنَ شَمِلَ قَضَايَا فِي الدَّلَالَةِ كالاستِعَارَةِ إِلَّا أَنَّ فَهْمَ المُؤَلَّفِ لَهَا إِذْ يَقُولُ فِيهَا بالنَّقْلِ سَوَّغَ لَهُ إِيرَادَهَا فِي هَذَا القِسْمِ الَّذِي تَحَدَّثَ فِيهِ عَنِ التقديمِ والتأخيرِ، والقَلْبِ، وحُسْنِ الاستِعَارَةِ، والحَشْوِ، ومُدَاخَلَةِ الكَلَامِ بَعْضُهُ بعضًا أَوِ المُعَاظَلَةِ، وعَدَمِ إِيرَادِ ألفاظِ الذَّمِّ فِي المَدْحِ، وألفاظِ المَدْحِ فِي الذَّمِّ، وأَلَّا يَسْتَعْمِلَ فِي الشِّعْرِ المَنْظُومِ والكَلَامِ المَنْثُورِ مِنَ الرَّسَائِلِ والخُطَبَ أَلْفَاظَ المُتَكَلِّمِينَ والنَّحْوِيِّينَ والمُهَنْدِسِينَ ومَعَانِيهِمِ وألفاظِ أَهْلِ المِهَنِ والعُلُومِ[64] ونَجِدُ أَنَّ الجَاحِظَ قَدْ سَبَقَ الخَفَاجِيَّ إِلَى هَذَا المَذْهَبِ حَيْثُ قَالَ: «وَأَرَى أَنْ أَلْفِظَ بألفاظِ المُتَكَلِّمِينَ مَا دُمْتُ خَائِضًا فِي صناعَةِ الكَلَامِ مَعَ خَوَاصِّ أَهْلِ الكَلَامِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَفْهَمُ لَهُمْ عَنِّي وَأَخَفُّ لِمُؤْنَتِهِمْ عَلَيَّ»[65].

ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الأَصْلُ الثَّانِي الَّذِي يُحَدِّدُهُ بِقَوْلِهِ: «وَمِنْ شُرُوطِ الفصاحَةِ المناسِبَةِ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ، وَهِيَ عَلَى ضَرْبَيْنِ: مُنَاسَبَةٌ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ مِنْ طَرِيقِ الصِّيغَةِ، وَمُنَاسَبَةٌ بَيْنَهُمَا مِنْ طَرِيقِ المَعْنَى»[66]، وَهُوَ مَبْدَأٌ عَامٌّ يُشَكِّلُ أَشْكَالًا عِدَّةً مِنْ أنماطِ التَّنَاسُبِ الحادِثَةِ بَيْنَ وَحَدَاتِ الكَلَامِ فِي مُسْتَوَيَيْهِ الصَّوْتِيِّ والمَعْنَوِيِّ، ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ عَلَاقَةٍ تَضُمُّ وَحْدَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ تَزِيدُ مِنْ بَهَاءِ الكَلَامِ لِمَا لِأَشْكَالِ التَّوَازُنِ الحَادِثِ بَيْنَ وَحَدَاتِهِ مِنْ أَثَرٍ فِي إِيقَاعِ الكَلَامِ وتَنَاسُقِ عَنَاصِرِهِ، وَهُوَ أَمْرٌ يَمْتَدُّ بِهِ لِيُغَطِّيَ مِسَاحَاتٍ عَامَّةً فِي البِنْيَةِ كَالقَافِيَةِ والوَزْنِ ومِثَالُ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَبُو الفَتْحِ عُثْمَانُ بِنُ جِنِّي، قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى أَبِي الطَّيِّبِ قَوْلَهُ:

([60]) نفسه، ص: 109 - 110.
([61]) نفسه، (في حديثه عن شروط الفصاحة في الألفاظ المفردة)، ص: 77.
([62]) نفسه، ص: 110.
([63]) نفسه: ص: 111، في حين يرى حمادي صمود أن الخفاجيَّ باشر هذه الشروط مباشرة تفصيلية باستثناء هذا الأصل، مما أدى في نظره إلى جعل الإلمام بتخطيط الكتاب غير ميسور: **التفكير البلاغي عند العرب**، ص: 453.
([64]) **سر الفصاحة**، ص: 111 - 166.
([65]) عمرو بن بحر الجاحظ: **الحيوان**، تحقيق: عبد السلام هارون، (لبنان: دار الجيل، 1996)، 3/ 368.
([66]) السابق، ص: 169.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

وَقَدْ صَارَتِ الأَجْفَانُ قَرْحَى مِنَ البُكَا وَصَارَ بَهَارًا فِي الخُدُودِ الشَّقَائِقُ[67]

فَقُلْتُ: قَرْحَى؟ فقَالَ: إِنَّمَا قُلْتُ قُرْحًا؛ لِأَنِّي قُلْتُ: بَهَارًا، وَمِنْ هَذَا البَابِ قَوْلُهُمْ أَحْجَمَ وَأَقْدَمَ ومَطْمَعًا ومَهْرَبًا وَعَنْكَ وَفِيكَ[68]. وَمِنَ المُنَاسَبَةِ بَيْنَ الألفاظِ السَّجْعُ والازْدِوَاجُ والقَوَافِي فِي الشِّعْرِ الَّتِي يَرَاهَا تَجْرِي مَجْرَى السَّجْعِ، ثُمَّ التَّصْرِيعِ والتَّرْصِيعِ، وَمِنْهَا أَيْضًا حَمْلُ اللفظِ عَلَى اللفظِ فِي الترتِيبِ لِيَكُونَ مَا يَرْجِعُ إِلَى المُقَدَّمِ مُقَدَّمًا وَإِلَى المُؤَخَّرِ مُؤَخَّرًا وَمِنَ المُنَاسَبَةِ أَيْضًا التَّنَاسُبُ فِي المِقْدَارِ وهَذَا فِي الشِّعْرِ مَحْفُوظٌ بِالوَزْنِ، وَمِنْهُ المُجَانِسُ. أَمَّا تَنَاسُبُ الألفاظِ عَنْ طريقِ المَعْنَى فَإِنَّهُ يَتِمُّ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَنْ يَكُونَ مَعْنَى اللَّفْظَتَيْنِ مُتَقَارِبًا، أَوْ أَحَدُ المَعْنَيَيْنِ مُضَادًّا لِلآخَرِ وَهُوَ المُطَابِقُ، أَوْ قَرِيبًا مِنَ المُضَادِّ[69].

أَمَّا القِسْمُ الرَّابِعُ –فِي نَظَرِي– فَهُوَ يَذْكُرُهُ تَحْتَ وَصْفِ شروطِ الفصاحَةِ والبلاغَةِ، وَهِيَ: الإِيجَازُ والاختِصَارُ وَيَتَعَرَّضُ فِيهِ للمُسَاوَاةِ والتَّذْيِيلِ، وَمِنْهُ أَيْضًا وُضُوحُ الكَلَامِ وَظُهُورِهِ حَتَّى لَا يَحْتَاجَ إِلَى فِكْرٍ فِي استِخْرَاجِهِ، ثُمَّ الإِرْدَافُ والتَّتْبِيعُ، وأخيرًا التَّمْثِيلُ[70].

بَعْدَ هَذَا يَنْتَهِي قِسْمُ التأليفِ بِتفرُّعَاتِهِ وأقسامِهِ لِيُخْلَصَ مِنْهُ إِلَى القِسمِ الآخَرِ المُعَنْوَنِ بالكَلَامِ فِي المَعَانِي المُفْرَدَةِ وَهُوَ يَرَى «أَنَّ البلاغَةَ حُسْنُ الألفاظِ والمَعَانِي، وَأَنَّ كُلَّ كَلَامٍ بَلِيغٍ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ فصيحًا وَلَيْسَ كُلُّ فَصِيحٍ بليغًا، إِذْ كَانَتِ البلاغَةُ تَشْتَمِلُ عَلَى الفصاحَةِ وزيادَةٍ لِتَعَلُّقِ البلاغَةِ مَعَ الألفاظِ بالمَعَانِي»[71]

المَبْحَثُ الثَّانِي:

الكَلَامُ فِي المَعَانِي المُفْرَدَةِ

يُؤَكِّدُ الخَفَاجِيُّ عَلَى صعوبَةِ حَصْرِ المَعَانِي بِقَوَانِينَ تَسْتَوْعِبُ أَقْسَامَهَا كَمَا ذَكَرَ فِي الألفاظِ إِذْ إِنَّ ذَلِكَ ثَمَرَةُ عِلْمِ المَنْطِقِ وَنَتِيجَةُ صِنَاعَةِ الكَلَامِ[72]. ثُمَّ يَنْتَهِي فِي مَقْصِدِهِ إِلَى إِيفَاءِ مَعَانِي صناعَةِ الكَلَامِ حَقَّهَا مِنَ الحَصْرِ والتَّنْبِيهِ عَلَى الخطأِ بَاسِطًا قَبْلَ ذَلِكَ مُقَدِّمَةً نَظَرِيَّةً يُبَيِّنُ فِيهَا أَنَّ المَعَانِي لَهَا فِي الوُجُودِ أَرْبَعَةُ مَوَاضِعَ: فِي نَفْسِهَا، وَفِي أَفْهَامِ المُتَصَوِّرِينَ لَهَا، وَفِي الألفاظ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا، وَفِي الخَطِّ الَّذِي هُوَ مِنْ أَشْكَالِ تِلْكَ الألفاظِ المُعَبَّرِ بِهَا عَنْهَا، وهَذَا التَّصَوُّرُ يُوَافِقُ مَا عَرَضَهُ الرُّمَّانِيُّ فِي تَعْرِيفِهِ لِلْبَيَانِ حِينَ قَالَ: «وَالبَيَانُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: كَلَامٌ وحَالٌ وإِشَارَةٌ وَعَلَامَةٌ»[73] وهَذَا مَا سَبَقَ إِلَيْهِ الجَاحِظُ عِنْدَمَا قَالَ: «إِنَّ أصنافَ

([67]) * قَرْحَى بغير تنوين جمع قَرِيح مثل مرضى وجرحى وروى ابن جنى أن المتنبي كان يقول قُرْحًا بالتنوين على أنها جمع قُرْحَة كما أن بهارًا جمع بهارة وهي الورد الأصفر والمعنى أن الأجفان قد قرحت وصارت حمرة الخدود صفرةً لأجل البين. أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي: **شرح ديوان المتنبي**، 1/ 63 (الكتاب مرقم آليًّا غير موافق للمطبوع).

([68]) **سر الفصاحة**، ص: 170.

([69]) السابق، ص: 171 - 205.

([70]) نفسه، ص: 205 - 234.

([71]) **سر الفصاحة**، ص: 234.

([72]) السابق، ص: 234.

([73]) علي بن عيسى الرماني: **النكت في إعجاز القرآن** (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، حققها وعلق عليها: محمد خلف

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

الدِّلَالَاتِ عَلَى المَعَانِي مِنْ لَفْظٍ وَغَيْرِ لَفْظٍ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ لَا تَنْقُصُ وَلَا تَزِيدُ: أَوَّلُهَا اللَّفْظُ، ثُمَّ الإِشَارَةُ ثُمَّ العَقْدُ، ثُمَّ الخَطُّ ثُمَّ الحَالُ»[74]. وإِذَا كَانَ وُجُودُ المَعَانِي فِي الألفاظِ هُوَ مَوْضِعُ البَحْثِ فَإِنَّهُ «لَيْسَ يَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا مِنْ حَيْثُ وُجِدَتْ فِي جميعِ الألفاظِ، بَلْ مِنْ حَيْثُ تُوجَدُ فِي الألفاظِ المؤلَّفَةِ المَنْظُومَةِ عَلَى طَرِيقَةِ الشِّعْرِ والرَّسَائِلِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا فَقَطْ»[75].

أَمَّا حَصْرُ هَذِهِ الأَوْصَافِ فَيُرْسِلُهَا فِي قَائِمَةٍ عَامَّةٍ تَشْمَلُ مَا يَأْتِي:

- الصِّحَّةَ فِي التَّقْسيمِ[76].
- تَجَنُّبَ الاستحالَةِ والتناقُضِ[77].
- أَلَّا يَضَعَ الجَائِزَ مَوْضِعَ المُمْتَنِعِ[78].
- صِحَّةَ التَّشْبِيهِ[79].
- صِحَّةَ الأَوْصَافِ فِي الأَغْرَاضِ[80].
- صِحَّةَ المُقَابَلَةِ فِي المَعَانِي[81].
- صِحَّةَ النَّسَقِ وَالنَّظْمِ وَحُسْنَ التَّخَلُّصِ[82].
- صِحَّةَ التَّقْسِيرِ[83].
- المُبَالَغَةَ وَالغُلُوَّ فِي المَعْنَى[84].
- الاسْتِدْلَالَ بالتمثيلِ[85].
- الاستدلالَ بالتعليلِ[86].

1. الصِّحَةُ فِي التقسيمِ:

يَتَّفِقُ الخَفَاجِيُّ مَعَ العَسْكَرِيِّ فِي ذَلِكَ بِأَنَّ مِنَ الأوصافِ الَّتِي تَطْلُبُهَا المَعَانِي «أَنْ تَكُونَ الأقسامُ المذكُورَةُ لَمْ يُخِلَّ بِشَيْءٍ مِنْهَا وَلَا تَكَرَّرَتْ وَلَا دَخَلَ بَعْضُهَا تَحْتَ بَعْضٍ»[87] وَمِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُ نُصَيْبٍ:

فَقَالَ فَرِيقُ القَوْمِ لَا وَفَرِيقُهُمْ نَعَمْ وَفَرِيقٌ قَالَ وَيْحَكَ مَا نَدْرِي[88]

الله، ومحمد زغلول سلام)، (مصر: دار المعارف، د. ت)، ص: 90.

([74]) الجاحظ: **البيان والتبيين**، 1/ 55.

([75]) **سر الفصاحة**، ص: 235.

([76]) السابق، ص: 235.

([77]) نفسه، ص: 238.

([78]) نفسه، ص: 245.

([79]) نفسه، ص: 246.

([80]) نفسه، ص: 256.

([81]) السابق، ص: 267.

([82]) نفسه، ص: 268.

([83]) نفسه، ص: 270

([84]) نفسه، ص: 271.

([85]) نفسه، ص: 275.

([86]) نفسه، ص: 277.

([87]) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 390.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

فلَيْسَ فِي أقسامِ الإجابَةِ عَنْ مطلوبٍ إذَا سُئِلَ عَنْهُ غَيْرُ هَذِهِ الأَقْسَامِ

وَفِي هَذَا الجانِبِ يَظْهَرُ تَقْسِيمُ الخَفَاجِيّ لِلْمَوَاطِنِ السَّلْبِيَّةِ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ جَرِيرٍ:

صَارَتْ حَنِيفَةُ أَثْلَاثًا فَثُلُثُهُمْ مِنَ العَبِيدِ وَثُلُثٌ مِنْ مَوَالِيهَا[89]

وَالسَّبَبُ فِي كَوْنِهَا قِسْمَةً فَاسِدَةً هُوَ الإِخْلَالُ لِأَنَّهُ أَخَلَّ بِقِسْمٍ مِنَ الثَّلَاثَةِ. وَقَدْ يَكُونُ المُسَوِّغُ للشاعِرِ هُوَ الوَزْنُ والقَافِيَةُ.

وَمِنْهُ أَيْضًا قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

قَسَمَ الزَّمَانُ رُبُوعَهَا بَيْنَ الصَّبَا وَقُبُولِهَا وَدُبُورَهَا أَثْلَاثَا

فَالفَسَادُ هُنَا مِنْ طَرِيقِ التَّكْرَارِ لِأَنَّ القُبُولَ هِيَ الصَّبَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ اللغَةِ[90]، وَأَرَى أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ لَا يَفُوتُهُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ قَدْ يَقْصِدُ بِالقُبُولِ شَيْئًا آخَرَ لَمْ يَتَوَصَّلْ إِلَيْهِ العُلَمَاءُ لِذَلِكَ عَابُوهُ.

2. تَجَنُّبُ الاستحالةِ والتناقُضِ:

وَيُقْصَدُ بِذَلِكَ:أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ المُتَقَابِلَيْنِ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، والتَقَابُلُ عِنْدَ الخَفَاجِيّ مِثْلُهُ مِثْلُ قُدَامَةَ بْنِ جَعْفَرٍ يَجْعَلُهُ عَلَى أَرْبَعِ جِهَاتٍ: فَهُوَ إِمَّا عَنْ طريقِ المُضَافِ مِثْلَ الضِّعْفِ بالقِياسِ إِلَى نِصْفِهِ والأَبِ إِلَى ابْنِهِ، وَإِمَّا عَلَى طَرِيقِ التَّضَادِّ مِثْلَ الأَبْيَضِ والأَسْوَدِ، وَإِمَّا عَلَى طريقِ العَدَمِ والقَنِيَّةِ كالأَعْمَى والبَصِيرِ، وَإِمَّا عَنْ طريقِ النَّفْيِ والإِثْبَاتِ كَأَنْ يُقَالَ زَيْدٌ جَالِسٌ زَيْدٌ لَيْسَ بِجَالِسٍ فَإِذَا اجْتَمَعَ فِي الكَلَامِ مُتَقَابِلَانِ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ فَهُوَ عَيْبٌ فِي المَعْنَى[91]. وَإِنْ كَانُوا قَدْ تَسَمَّحُوا فِيمَا يَقَعُ فِي الشِّعْرِ أَنْ يَكُونَ فِي البَيْتِ شَيْءٌ وَفِي بَيْتٍ آخَرَ مَا يَنْقُضُهُ فَلِأَنَّهُمْ «اعْتَقَدُوا أَنَّ كُلَّ بَيْتٍ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، فَجَرَى البَيْتَانِ مَجْرَى قَصِيدَتَيْنَ فَكَمَا جَازَ للشاعِرِ أَنْ يُنَاقِضَ قَصِيدَتَيْنِ كَذَلِكَ جَازَ لَهُ أَنْ يُنَاقِضَ بِبَيْتَيْنِ»[92]. وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُ الجَاحِظِ: «إِنَّ العَرَبَ تَمْدَحُ الشَّيْءَ وَتَذُمُّهُ لَكِنَّهُمْ لَا يَمْدَحُونَ الشَّيْءَ مِنَ الوَجْهِ الَّذِي يَذُمُّونَ بِهِ»[93] وَيَقُولُ: «وَكَانُوا يَمْدَحُونَ شِدَّةَ العَارِضَةِ وَقُوَّةَ المِنَّةِ وَظُهُورَ الحُجَّةِ وَثَبَاتَ الجَنَانِ وَكَثْرَةِ الرِّيْقِ والعُلُوَّ عَلَى الخَصْمِ، وَيَهْجُونَ بِخِلَافِ ذَلِكَ»[94] وَيَنْتَصِرُ إِلَيْهِ الخَفَاجِيُّ الَّذِي يَتَأَثَّرُ بِهِ إِذْ يَسْتَدِلُّ بِرَأْيِهِ فِي قَوْلِهِ: «وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ أَبُو عُثْمَانَ لَعَمْرِي إِنَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَتَصَرَّفُ قَوْلُهُمْ»[95] وَمِثَالُ ذَلِكَ مَا قَالَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي وَصْفِ الفِرَاقِ بِالطُّولِ:

يَوْمَ الفِرَاقِ لَقَدْ خُلِقْتَ طَوِيلَا لَمْ تُبْقِ لي جَلَدًا وَلَا مَعْقُولَا

قَالُوا الرَّحِيلَ فَمَا شَكَكْتُ بِأَنَّهَا نَفْسِي مِنَ الدُّنْيَا تُرِيدَ رَحِيلَا

([88]) سر الفصاحة، ص: 235.
([89]) نفسه، ص: 237.
([90]) نفسه، ص: 237.
([91]) **سر الفصاحة**، ص: 238.
([92]) السابق، ص: 239 - 240
([93]) الجاحظ: **البيان والتبيين**، 1/ 176.
([94]) السابق، 1/ 176.
([95]) **سر الفصاحة**، ص: 240.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

عَلَّلَ الطُّولَ مِنْ جَرَّاءَ مُعَانَاتِهِ الوِجْدَانِيَّةِ أَثْنَاءَ رَحِيلِ مَنْ أَحَبَّ.

والقَاعِدَةُ الأَسَاسِيَّةُ هِيَ اجتِمَاعُ التناقُضِ والاستحالَةِ فَمِنَ المتناقُضِ قولُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ القَسّ:

أَرَى هَجْرَهَا وَالقَتْلَ مِثْلَيْنِ فَاقْصِرُوا مَلَامَكُمْ فَالقَتْلُ أَعْفَى وَأَيْسَرُ[96]

جَعَلَ القَتْلَ والهَجْرَ مِثْلَيْنِ وَهُوَ لَيْسَ كَذَلِكَ ثُمَّ قَالَ بِأَنَّ القَتْلَ أَعْفَى وَأَيْسَرُ وَلَوْ أَنَّهُ اسْتَبْدَلَ الفَاءَ بـ (بَلْ) لَاسْتَقَامَ الشِّعْرُ[97].

3. أَلَّا يَضَعَ الجَائِزَ مَوْضِعَ المُمْتَنِعِ:

يَقُولُ ابْنُ سِنَانٍ: «وَمِنَ الصِّحَةِ أَلَّا يَضَعَ الجَائِزَ مَوْضِعَ المُمْتَنِعِ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَضَعَ المُمْتَنِعَ مَوْضِعَ الجَائِزِ إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ ضَرْبٌ مِنَ الغُلُوِّ وَالمُبَالَغَةِ»[98] وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَإِنْ صُورَةٌ رَاقَتْكَ فَأَخْبِرْ فَرُبَّمَا أَمَرَّ مَذَاقُ العُودُ وَالعُودُ أَخْضَرُ

لِأَنَّ مَضْمُونَ الكَلَامِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ العُودَ فِي الأَكْثَرِ يَكُونُ حُلْوًا بِدَلِيلِ قَوْلِهِ رُبَّمَا وَلَيْسَ الأَمْرُ فِي حَقِيقَتِهِ كَذَلِكَ بَلِ العُودُ الأَخْضَرُ فِي الأَكْثَرِ مُرٌّ، وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ وَضَعَ الأَكْثَرَ مَوْضِعَ الأَقَلِّ وَذَلِكَ غَلَطٌ فِي المَعْنَى[99].

4. صِحَّةُ التَّشْبِيهِ:

والمَقْصُودُ بِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ مِثْلَ الآخَرِ وَلَكِنِ الأَحْسَنُ فِي التَّشْبِيهِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ يُشْبِهُ الآخَرَ فِي أَكْثَرِ صِفَاتِهِ ومَعَانِيهِ، وَيُذْكَرُ أَنَّ مِنْ حُسْنِ التَّشْبِيهِ أَنْ يُمَثِّلَ الغَائِبَ الخَفِيَّ الَّذِي لَا يُعْتَادُ بالظَّاهِرِ المَحْسُوسِ فَيَكُونُ حُسْنُهُ لِأَجْلِ الغُلُوِّ والمُبَالَغَةِ[100] وَوَاضِحٌ أَنَّهُ يَتَأَثَّرُ بِالرُّمَّانِيِّ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ حُسْنَ التَّشْبِيهِ إِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى تَشْبِيهِ الخَفِيِّ بالظَّاهِرِ المَحْسُوسِ[101] وَقَدْ مَثَّلَ الخَفَاجِيُّ بِأَمْثِلَةٍ مِنَ القُرآنِ الكريمِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾[102].

والجَدِيرُ بالذِّكْرِ أَنَّ الخَفَاجِيَّ استَفَاضَ الحَدِيثَ عَنِ التَّشْبِيهِ بِحُرُوفِهِ وَأَدَوَاتِهِ وَقَدْ أَثَارَ قَضِيَّةً تَتَمَثَّلُ فِي كَوْنِ المُشَبَّهِ قَدْ يَكُونُ أَوْضَحَ مِنَ المُشَبَّهِ بِهِ وَذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[103]

([96]) قدامة بن جعفر: **نقد الشعر**، تحقيق: كمال مصطفى، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1963)، ص: 239.
([97]) **سر الفصاحة**، ص: 243.
([98]) السابق، ص: 245.
([99]) نفسه، ص: 245.
([100]) نفسه، ص: 246
([101]) الرماني: **إعجاز القرآن**، ص: 80. وقد تحدث أيضًا عن أقسام التشبيه، انظر ص: 80 – 82.
([102]) إبراهيم: 18.
([103])الصافات: 64 - 65.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

إذْ إِنَّ المُشَبَّهَ وَاضِحٌ وَلَكِنِ المُشَبَّهُ بِهِ غَيْرُ مُشَاهَدٍ وَقَدْ رَدَّ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ المُشَبَّهَ بِهِ شَيْءٌ مُسْتَقِرٌّ فِي نُفُوسِ النَّاسِ مِنْ قُبْحِ الشَّيَاطِينِ حَتَّى صَارَ بِمَنْزِلَةِ المُشَاهَدِ[104].

وَمِنَ الجَدِيرِ بالذِّكْرِ أَنَّ التَّشْبِيهَ مِنَ الأَقْسَامِ المُهِمَّةِ وَالَّتِي لَمْ يَغْفَلْهَا النُّقَّادُ وَمِنْ أَبْرَزِهِمُ ابْنُ طَبَاطِبَا العَلَوِيُّ وَهُوَ يُعَدُّ أَهَمَّ مَبْحَثٍ فِي كتابِهِ (عِيَارِ الشِّعْرِ) يَتَّصِلُ بالبلاغَةِ وَتَطَوُّرِ البَحْثِ فِي مَسَائِلِهَا وَقَدْ حَاوَلَ أَنْ يَسْتَقْصِيَ وُجُوهَهُ وَأَقْسَامَهُ[105].

5. صِحَّةُ الأَوْصَافِ فِي الأَغْرَاضِ:

وَيُفَسِّرُهُ الخَفَاجِيُّ بِمِثْلِ أَنْ يُمْدَحَ الرَّجُلُ بِمَا يَلِيقُ بِهِ وَلَا يُنْفَرُ مِنْهُ كَأَنْ يُمْدَحَ الخَلِيفَةُ بِتَأْيِيدِ الدِّينِ وتَقْوِيَةِ أَمْرِهِ وَحُسْنِ السِّيَاسَةِ وغَيْرِ ذَلِكَ وتُطَبَّقُ هَذِهِ القَاعِدَةُ فِي كلِّ غَرَضٍ مِنَ الأَغْرَاضِ الشِّعْرِيَّةِ مِنْ هِجَاءٍ وَفَخْرٍ وعِتَابٍ ووصْفٍ[106]. وَهَذِهِ الفِكْرَةُ أَشْبَهُ بِمَا يُسَمَّى عِنْدَ البَلَاغِيِّينَ بِمُطَابَقَةِ الكَلَامِ لمُقْتَضَى الحَالِ وَقَدْ أَشَارَ الجَاحِظُ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ بِأَنَّ الكَلَامَ طَبَقَاتٌ تَخْتَلِفُ باخْتِلَافِ السَّامِعِينَ وَطَبَقَاتِهِمْ وَيُرَدِّدُ ذَلِكَ فِي "الحَيَوَانِ" مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ: «إِنَّ لِكُلِّ مَعْنًى شَرِيفٍ أَوْ وَضِيعٍ هَزْلٍ أَوْ جِدٍّ أَوْ حِرْفَةٍ أَوْ صِنَاعَةٍ ضَرْبًا مِنَ اللَّفْظِ هُوَ حَقُّهُ وَنَصِيبُهُ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يُجَاوِزَهُ أَوْ يَقْصُرَ دُونَهُ»[107]. وَيُشِيرُ كثيرًا فِي كتابِهِ "البَيَانِ والتَّبْيِينِ" إِلَى هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ وَكَيْفَ يُفَرِّقُ المُتَكَلِّمُ بَيْنَ الخاصَّةِ والعامَّةِ، والسُّوقَةِ وَمَنْ فَوْقَهُمْ، فالنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فِي ذَكَائِهِمْ وَفِي استِعْدَادِهِمْ للفَهْمِ والتَّأَثُّرِ[108].

وَقَدْ بَيَّنَ الخَفَاجِيُّ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ إِلَى أَنَّ «المَدْحَ بالحُسْنِ والجَمَالِ، والذَّمَّ بالقُبْحِ والدَّمَامَةِ لَيْسَ بِمَدْحٍ عَلَى الحَقِيقَةِ وَلَا ذَمَّ عَلَى الصِّحَّةِ، وَيُخْطِئُ كُلُّ مَنْ يَمْدَحُ بِهَذَا وَيَذُمُّ بِذَاكَ، وَيَسْتَدِلُّ بِإِنْكَارِ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ عَلَى عُبَيْدِ اللهِ بْنِ قَيْسِ الرُّقَيَّاتِ قَوْلَهُ فِيهِ:

يَأْتَلِقُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

وَقَوْلَهُ لَهُ: تَقُولُ فِيَّ هَذَا وَتَقُولُ لِمُصْعَبٍ:

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ

وَقَدْ أَنْكَرَ هَذَا المَذْهَبَ عَلَى قُدَامَةَ، أَبُو القَاسِمِ الحَسَنُ بْنُ بِشْرٍ الآمِدِيُّ، وَقَالَ: إِنَّهُ خَالَفَ فِيهِ مَذَاهِبَ الأُمَمِ كُلِّهَا عَرَبِيِّهَا وَأَعْجَمِيِّهَا. لِأَنَّ الوَجْهَ الجَمِيلَ يَزِيدُ الهَيْبَةَ وَيُتَيَمَّنَ بِهِ. وَيَدُلُّ عَلَى الخِصَالِ المَحْمُودَةِ»[109].

([104]) **سر الفصاحة،** ص: 254.
([105]) ابن طباطبا العلوي: **عيار الشعر،** (القاهرة: المكتبة التجارية، 1956)، ص: 15. وشوقي ضيف: **البلاغة تطور وتاريخ،** ص: 124.
([106]) **سر الفصاحة،** ص: 256.
([107]) شوقي ضيف: **النقد،** (مصر: دار المعارف، 1954)، ص: 49.
([108]) نقلًا عن: عبد الرزاق أبو زيد زايد: **كتاب سر الفصاحة للخفاجيّ: دراسة وتحليل،** ص: 84.
([109]) **سر الفصاحة**: ص265 - 266.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

وَيُتَابِعُ الخَفَاجِيُّ الآمِدِيَّ فِي الرَّدِّ عَلَى قُدَامَةَ فَيَقُولُ: «هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ الآمِدِيُّ صَحِيحٌ وَلَمْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ إِلَّا مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ مِنَ المَيْلِ إِلَى الوُجُوهِ الحِسَانِ لَكَفَى وَأَغْنَى، فَإِنْ كَانَ قُدَامَةُ يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَاكَ لَيْسَ بِفَضِيلَةٍ لَمَا كَانَ الإِنسانُ قَدْ خُلِقَ عَلَيْهِ فهَذَا حُكْمُ جَمِيعِ الفَضَائِلِ النَّفْسَانِيَّةِ، فَإِنَّ الكَرِيمَ قَدْ خُلِقَ كَرِيمًا والشُّجَاعَ شُجَاعًا والعَاقِلَ عَاقِلًا وَكَمَا لَا يَقْدِرُ القَبِيحُ الوَجْهِ عَلَى أَنْ يَسْتَبْدِلَ صُورَةً غَيْرَ صُورَتِهِ كَذَلِكَ لَا يَقْدِرُ الجَاهِلُ عَلَى أَنْ يَسْتَفِيدَ عَقْلًا فَوْقَ عَقْلِهِ وَيَلْزَمُ قُدَامَةُ أَلَّا يُجِيزَ المَدْحَ بِشَرَفِ النَّفْسِ والنَّسَبِ وكَرَمِ الأَصْلِ لِأَنَّ ذَلِكَ أَيْضًا يَجْرِي مَجْرَى الصُّوَرِ، وَلَا صَنِيعَ للمَمْدُوحِ فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا، والأَمْرُ فِي هَذَا ظَاهِرٌ، فَأَمَّا إِنْكَارُ عَبْدِ المَلِكِ عَلَى ابْنِ قَيْسِ الرُّقَيَّاتِ مَدْحَهُ لَهُ بالتَّاجِ فَإِنَّمَا أَنْكَرَهُ لِأَنَّ التِّيجَانَ كَانَتْ مِنْ زِيِّ مُلُوكِ العَجَمِ وَلَمْ يَكُنْ خُلَفَاءُ العَرَبِ يَعْرِفُونَهَا، فقَالَ لَهُ: تَمْدَحُنِي كَمَا تُمْدَحُ مُلُوكِ الأَعَاجِمِ، وَتَمْدَحُ مُصْعَبًا كَمَا تُمْدَحُ الخُلَفَاءُ، والأَمْرُ عَلَى مَا قَالَ عَبْدُ المَلِكِ، لِأَنَّ مَدْحَ الخَلِيفَةِ بِأَنَّهُ شِهَابٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى أَبْلَغُ مِنْ مَدْحِهِ باعْتِدَالِ التَّاجِ فَوْقَ مَفْرِقِهِ»[110].

6. صِحَّةُ المُقَابَلَةِ فِي المَعَانِي:

وَيُعَرِّفُهَا الخَفَاجِيُّ بِأَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ تَقَابُلِ المَعَانِي والتوفِيقِ بَيْنَ بَعْضِهَا وَبَعْضٍ حَتَّى تَأْتِيَ فِي المُوَافِقِ بِمَا يُوَافِقُ وَفِي المُخَالِفِ بِمَا يُخَالِفُ عَلَى الصِّحَةِ[111].

وهَذَا الشَّرْطُ يُوحِي بِنَقِيضٍ يُقَابِلُهُ يَكْمُنُ فِي (فَسَادِ المُقَابَلَةِ) وَهُوَ الأَمْرُ الَّذِي تَنَاوَلَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ وَسَمَّاهَا بِصِحَّةِ المُقَابَلَاتِ وَهِيَ أَنْ يُرَتِّبَ الشَّاعِرُ مَعَانِيَهُ تَرْتِيبًا يُوَفِّقُ بَيْنَ بَعْضِهَا والبَعْضِ الآخَرِ بِحَيْثُ تَتَقَابَلُ فِي وُضُوحٍ[112].

كَمَا عَرَّفَ العُلَمَاءُ المُقَابَلَةَ بِتَعَارِيفَ مُخْتَلِفَةٍ مِنْهُمْ أَبُو هِلَالٍ العَسْكَرِيُّ[113] وابْنُ رَشِيقٍ القَيْرَوَانِيُّ[114]، والخَطِيبُ القَزْوِينِيُّ[115]، وَمِنْ هَذِهِ التَّعَارِيفِ يُمْكِنُ القَوْلُ بِأَنَّ المُقَابَلَةَ هِيَ: «أَنْ يُؤْتَى بمَعْنَيَيْنِ مُتَوَافِقَيْنِ أَوْ مَعَانٍ مُتَوَافِقَةٍ، ثُمَّ بِمَا يُقَابِلُهَا عَلَى التَّرْتِيبِ»[116].

وَمِنَ الأَمْثِلَةِ الَّتِي سَاقَهَا الخَفَاجِيُّ عَلَى صِحَّةِ المُقَابَلَةِ قَوْلُ الطِّرِمَّاحِ:

أَسَرْنَاهُمْ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ وَأَسْقَيْنَا دِمَاءَهُمُ التُّرَابَا

فَمَا صَبَرُوا لِبَأْسٍ عِنْدَ حَرْبٍ وَلَا أَدَّوْا لِحُسْنِ يَدٍ ثَوَابَا[117]

([110]) **سر الفصاحة،** ص: 266.
([111]) السابق: ص267.
([112]) عبد الرزاق أبو زيد: **سر الفصاحة دراسة وتحليل،** ص: 128. قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص: 133.
([113]) إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة. أبو هلال العسكري: **الصناعتين،** ص: 337.
([114]) وهو أن يأتي في الموافق بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه. ابن رشيق: **العمدة،** ص: 304.
([115]) وهو أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة ثم بما يقابلها على الترتيب. الخطيب القزويني: **الإيضاح في علوم البلاغة،** ص: 322
([116]) عبد العزيز عتيق: **علم البديع،** (بيروت: دار النهضة العربية، د.ت)، ص: 86.
([117]) ديوان الطرمّاح: تحقيق: عزة حسن، (دمشق: إحياء التراث القديم، 1986)، ص: 564.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

فَأَمَّا فَسَادُ المُقَابَلَةِ فَمِثْلُ قَوْلِ أَبِي عَدِيٍّ القُرَشِيّ:

يَا ابْنَ خَيْرِ الأَخْيَارِ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ أَنْتَ زَيْنُ الدُّنْيَا وَغَيْثُ الجُنُودِ[118]

فلَيْسَ غَيْثُ الجُنُودِ مُقَابِلًا لِزَيْنِ الدُّنْيَا وَلَا مُوَافِقًا[119].

نَجِدُ الخَفَاجِيَّ يَتَّجِهُ دَائِمًا فِي مُعَالَجَتِهِ لِتِلْكَ الفُنُونِ، إِلَى النَّوَاحِي الأَدَبِيَّةِ بعيدًا عَنِ التَّقْسِيمَاتِ وَتَعَدُّدِ الأَنْوَاعِ، بَلْ يَسُوقُ الأَمْثِلَةَ وَيُوَضِّحَ الأَفْكَارَ حَتَّى يُقَوِّيَ الصِّلَةَ بَيْنَ المُتَذَوِّقِ والشَّاهِدِ.

7. صِحَّةُ النَّسَقِ والنَّظْمِ وحُسْنِ التَّخَلُّصِ:

وَهُوَ أَنْ يَسْتَمِرَّ فِي المَعْنَى الوَاحِدِ وإِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِفَ مَعْنًى آخَرَ أَحْسَنَ التَّخَلُّصَ إِلَيْهِ حَتَّى يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بالأَوَّلِ وَغَيْرَ مُنْقَطِعٍ عَنْهُ، وَمِنْ هَذَا البَابِ خُروجُ الشُّعَرَاءِ مِنَ النَّسِيبِ إِلَى المَدْحِ، فَإِنَّ المُحْدَثِينَ أَجَادُوا التَّخَلُّصَ حَتَّى صَارَ كَلَامُهُمْ فِي النَّسِيبِ مُتَعَلِّقًا بِكَلَامِهِمْ فِي المَدْحِ لَا يَنْقَطِعُ عَنْهُ، فَأَمَّا العَرَبُ المُتَقَدِّمُونَ فَلَمْ يَكُونُوا يَسْلُكُونَ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ، وَإِنَّمَا كَانَ أَكْثَرُ خُرُوجِهِمْ مِنَ النَّسِيبِ إِمَّا مُنْقَطِعًا، وَإِمَّا مَبْنِيًّا عَلَى وَصْفِ الإِبِلِ الَّتِي سَارُوا إِلَى المَمْدُوحِ عَلَيْهَا، وَمِمَّا يُسْتَحْسَنُ مِنْ خُرُوجِ المُحْدَثِينَ[120] قَوْلُ البُحْتُرِيّ يَصِفُ الرَّوْضَ[121]:

شَقَائِقُ يَحْمِلْنَ النَّدَى فَكَأَنَّهُ دُمُوعُ التَّصَابِي فِي خُدُودِ الخَرَائِدِ

كَأَنَّ يَدَ الفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ أَرْفَلَتْ تَلِيهَا بِتِلْكَ البَارِقَاتِ الرَّوَاعِدِ

وَهَذِهِ النَّوَاحِي الفَنِّيَّةُ تَحَدَّثَ عَنْهَا ابْنُ طَبَاطِبَا حَيْثُ يَقُولُ: «وَأَحْسَنُ الشِّعْرِ مَا يَنْتَظِمُ فِيهِ القَوْلُ انتِظَامًا يَتَّسِقُ بِهِ أَوَّلُهُ مَعَ آخِرِهِ عَلَى مَا يُنَسِّقُهُ قَائِلُهُ فَإِنْ قُدِّمَ بَيْتٌ دَخَلَهُ الخَلَلُ كَمَا يَدْخُلُ الرَّسَائِلَ والخُطَبَ إِذَا نُقِضَ تَأْلِيفُهَا فَإِنَّ الشِّعْرَ إِذَا أُسِّسَ تَأْسِيسَ فُصُولِ الرَّسَائِلِ القَائِمَةِ بِأَنْفُسِهَا وَكَلِمَاتِ الحِكْمَةِ المُسْتَقِلَّةِ بِذَاتِهَا، والأَمْثَالِ السَّائِدَةِ المَوْسُومَةِ باختِصَارِهَا لَمْ يَحْسُنْ نَظْمُهُ بَلْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ القَصِيدَةُ كُلُّهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً فِي اشتِبَاهِ أَوَّلِهَا بآخِرِهَا، نَسْجًا وَحُسْنًا وَفَصَاحَةً، وجَزَالَةَ أَلْفَاظٍ ودِقَّةَ مَعَانٍ وصَوَابَ تَأْلِيفٍ، وَيَكُونُ خُرُوجُ الشَّاعِرِ مِنْ كُلِّ مَعْنًى يُضِيفُهُ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ المَعَانِي خُرُوجًا لَطِيفًا ... حَتَّى تَخْرُجَ القَصِيدَةُ كَأَنَّهَا مُفَرَّغَةٌ إِفْرَاغًا»[122].

وَتَحَدَّثَ عَنْهُ ابْنُ الأَثِيرِ قائلًا: «وَهُوَ أَنْ يَأْخُذَ مُؤَلِّفُ الكَلَامِ فِي مَعْنًى مِنَ المَعَانِي فَبَيَّنَا هُوَ فِيهِ إِذْ أَخَذَ فِي مَعْنًى آخَرَ غَيْرِهِ وَجَعَلَ الأَوَّلَ سببًا إِلَيْهِ فَيَكُونُ بَعْضُهُ آخِذًا بِرِقَابِ بَعْضٍ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْطَعَ كَلَامَهُ وَيَسْتَأْنِفَ كَلَامًا آخَرَ، بَلْ يَكُونُ جَمِيعُ كَلَامِهِ كَأَنَّمَا أُفْرِغَ إِفْرَاغًا، وَذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى حِذْقِ الشَّاعِرِ، وقُوَّةِ تَصَرُّفِهِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ نِطَاقَ الكَلَامِ يَضِيقُ عَلَيْهِ، وَيَكُونُ مُتَّبِعًا للوَزْنِ والقافِيَةِ فَلَا تُوَاتِيهِ الألفاظُ عَلَى حَسَبِ إِرَادَتِهِ»[123].

([118]) ورد البيت عند قدامة بن جعفر: **نقد الشعر**، ص: 37.
([119]) **سر الفصاحة**، 268.
([120]) السابق، 268.
([121]) **ديوان البحتري:** تحقيق حسن كامل الصيرفي، (القاهرة: دار المعارف، د. ت)، 1/ 123.
([122]) ابن طباطبا العلوي: **عيار الشعر**، ص: 213.
([123]) ابن الأثير: **المثل السائر**، 2/ 244.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

وَنَرَى أَنَّ حقيقَةَ التخلُّصِ أَنْ يَنْتَقِلَ الأَدِيبُ مِنْ كَلَامٍ إِلَى آخَرَ دُونَ أَنْ يُخِلَّ بانْسِيَابِ المَعَانِي؛ لِذَا اهْتَمَّ العُلمَاءُ بِهَذَا اللَّوْنِ البَلَاغِيِّ حِرْصًا عَلَى الكَلَامِ مِنَ الخَلَلِ، كَمَا يَقُولُ بَدَوِي طَبَانَةَ: «إِذَا اضْطُرَّ إِلَى الاستِطْرَادِ أَوِ الخُرُوجِ عَنِ الموضُوعِ الَّذِي أَخَذَ فِيهِ عَلَيْهِ أَنْ يُحْسِنَ التَّخَلُّصَ أَوِ الخُرُوجَ بِلُطْفٍ، حَتَّى لَا يُحِسَّ القَارِئُ أَوِ السَّامِعُ بِذَلِكَ الخُرُوجِ وَلِتَبْدُوَ القَصِيدَةُ وَكَأَنَّهَا أُفْرِغَتْ إِفْرَاغًا وَاحِدًا تَقْتَضِي كُلُّ كَلِمَةٍ مَا بَعْدَهَا وَيَكُونُ مَا بَعْدَهَا مُتَعَلِّقًا مُقْتَصِرًا إِلَيْهَا»[124].

وَمِنَ الخُرُوجِ إِلَى الذَّمِّ قَوْلُ البُحْتُرِيِّ:[125]

مَا إِنْ يَعَافُ قَذًى وَلَوْ أَوْرَدْتُهُ يَوْمًا خَلَائِقَ حَمْدَوَيْهِ الأَحْوَلِ

وَمِنَ الخُرُوجِ المُنْقَطِعِ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ[126]:

لَوْ رَأَى اللهُ أَنَّ فِي الشَّيْبِ فَضْلًا جَاوَرَتْهُ الأَبْرَارُ فِي الخُلْدِ شِيبَا

كُلَّ يَوْمٍ تُبْدِي صُرُوفُ اللَّيَالِي خُلْقًا مِنْ أَبِي سَعِيدٍ غَرِيبَا

يُلَاحَظُ أَنَّ الخَفَاجِيَّ تَنَبَّهَ إِلَى حُسْنِ الابتِدَاءِ فِي القَصِيدَةِ وَطَالَبَ بالتَّحَرُّزِ فِيهَا واختِيَارِ الألفاظِ الَّتِي لَا يُنْفَرُ مِنْهَا وَتَجَنُّبِ الألفاظِ الَّتِي يُسْتَشْنَعُ سَمَاعُهَا. وَفِي هَذَا الشَّأْنِ يَقُولُ أَحْمَدُ مَطْلُوبٍ: «ذَكَرَ البَلَاغِيُّون أَنَّ الأَدِيبَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَأَنَّقَ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنْ كَلَامِهِ حَتَّى يَكُونَ أَعْذَبَ لفظًا وأَحْسَنَ سَبْكًا وَأَصَحَّ مَعْنًى، والمَوَاضِعُ هِيَ: الابتِدَاءُ والتَّخَلُّصُ والانتِهَاءِ»[127] وَيُلَاحَظُ أَنَّ الخَفَاجِيَّ دَخَلَ فِي التَّطْبِيقِ مُبَاشَرَةً إِلَّا أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ نُدْرِكَ ضِمْنِيًّا مَا أَرَادَهُ مِنْ خِلَالِ حِرْصِهِ فِي تَعَامُلِهِ مَعَ فَنِّ القَوْلِ.

وَلَقَدِ اسْتَحْسَنَ القُدمَاءُ مَطْلَعَ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ[128]:

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الكَوَاكِبِ

تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بِآيِبِ

وَكَذَلِكَ مَطْلَعَ امْرِئِ القَيْسِ[129]:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

8. صِحَّة التَّفْسِيرِ:

«وَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ مُؤَلِّفُ الكَلَامِ مَعْنًى يَحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرِهِ فَيَأْتِي بِهِ عَلَى الصِّحَة مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصٍ»[130] وَعَرَّفَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ بِأَنَّهُ: «أَنْ يَضَعَ الشَّاعِرُ مَعَانِيَ يُرِيدُ أَنْ يَذْكُرَ أَحَدَ أَحْوَالِهَا فِي شِعْرِهِ الَّذِي يَصْنَعُهُ، فَإِذَا ذَكَرَهَا أَتَى بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخَالِفَ مَعْنَى مَا أَتَى بِهِ مِنْهَا، وَلَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ مَثَّلَ بِقَوْلِ الفَرَزْدَقِ:

لَقَدْ خُنْتَ قَوْمًا لَوْ لَجَأْتَ إِلَيْهِمُ طَرِيدَ دَمٍ أَوْ حَامِلًا ثِقْلَ مَغْرَمِ[131]

([124]) بدوي طبانة: **قضايا النقد الأدبي**، (، مكتبة الأنجلو المصرية،)، ص: 26.
([125]) **سر الفصاحة**، ص: 269.
([126]) **ديوان أبي تمام**، 1/ 161.
([127]) أحمد مطلوب: **القزويني وشروح التلخيص**، (بغداد: مكتبة النهضة، 1967)، 1/ 20 - 21.
([128]) **ديوان النابغة الذبياني**، شرح وتحقيق: كرم البستاني، (بيروت: دار صادر، 1960)، ص: 9.
([129]) **ديوان امرئ القيس**، ص: 8. **نقد الشعر**، ص: 52.
([130]) **سر الفصاحة**، ص: 270.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

فَلَمَّا كَانَ هَذَا البَيْتُ مُحْتَاجًا إِلَى تَفْسِيرٍ قَالَ:

لَأَلْفَيْتَ فِيهِمْ مُعْطِيًا وَمُطَاعِنًا وَرَاءَكَ شَزْرًا بِالوَشِيجِ المُـقَوّمِ[132]

فَفَسَّرَ قَوْلَهُ: حَامِلًا ثِقْلَ مَغْرَمٍ: بِأَنَّهُ يَلْقَى فِيهِمْ مَنْ يُعْطِيهِ، وَفَسَّرَ قَوْلَهُ: طَرِيدَ دَمٍ بِقَوْلِهِ: إِنَّهُ يَلْقَى مَنْ يُطَاعِنُ دُونَهُ وَيَحْمِيهِ»[133].

وَقَدْ أَوْرَدَ الخَفَاجِيُّ قَوْلَ الفَرَزْدَقِ مِمَّا يَدُلُّ أَنَّهُ أَفَادَ مِنْ قُدَامَةَ بْنِ جَعْفَرٍ.

ثُمَّ يَتَحَدَّثُ عَنْ كَمَالِ المَعْنَى أَوْ مَا يُسَمَّى بالتَّتْمِيمِ وَهُوَ عِنْدَ قُدَامَةَ بْنِ جَعْفَرٍ: «أَنْ يَذْكُرَ الشَّاعِرُ المَعْنَى فَلَا يَدَعُ مِنَ الأَحْوَالِ الَّتِي تَتِمُّ بِهَا صِحَّتُهُ وَتَكْمُلُ مَعَهَا جَوْدَتُهُ شيئًا إِلَّا أَتَى بِهِ»[134] وَبِهِ اقْتَدَى الخَفَاجِيُّ غَيْرَ أَنَّهُ سَمَّاهُ كَمَالَ المَعْنَى.

9. المُبَالَغَةُ والغُلُوُّ فِي المَعْنَى:

لَعَلَّ هَذِهِ القَضِيَّةَ تَقَعَ بَيْنَ جَانِبَيْنَ فَهُنَاكَ المُؤَيِّدُ وَهُنَاكَ المُنْكِرُ: فَأَمَّا حُجَّةُ مَنْ يَخْتَارُهُ فَهِيَ «أَحْسَنُ الشِّعْرِ أَكْذَبُهُ»[135] استِنَادًا إِلَى قَوْلِ النَّابِغَةِ حِينَ سُئِلَ: «مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ؟ فقَالَ: مِنَ اسْتُجِيدَ كَذِبُهُ، وَأَضْحَكَ رَدِيئُهُ»[136] وَمِنْهُمْ مَنْ يَذُمُّهُ وَعِلَّتُهُ فِي ذَلِكَ الخُرُوجُ إِلَى الإِحَالَةِ، وَيَرْتَضِيهِ إِذَا قَارَبَ الحَقِيقَةَ وَدَانَى الصِّحَةَ وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى أَنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطَفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الغُلُوِّ والإِفْرَاطِ الخَارِجِ عَنِ الحَقِيقَةِ، والَّذِي أَذْهَبُ إِلَيْهِ [ابْنُ سِنَانٍ] المَذْهَبُ الأَوَّلِ فِي حَمْدِ المُبَالَغَةِ والغُلُوِّ، لِأَنَّ الشِّعْرَ مَبْنِيٌّ عَلَى الجَوَازِ وَالتَّسَمُّحِ، لَكِنْ أَرَى أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي ذَلِكَ (كَادَ) وَمَا جَرَى فِي مَعْنَاهَا، لِيَكُونَ الكَلَامُ أَقْرَبَ إِلَى حَيِّزِ الصِّحَةِ كَمَا قَالَ البُحْتُرِيُّ:

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلْقُ يَخْتَالُ ضَاحِكًا مِنَ الحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَا[137].

فَالبَيْتُ السَّابِقُ تَضَمَّنَ غُلُوًّا وَلَكِنْ كَادَ قَرَّبَتْهُ إِلَى الصِّحَةِ، وَلَعَلَّ الخَفَاجِيَّ يَجْرِي مَجْرَى قُدَامَةَ بْنِ جَعْفَرٍ فِي مَذْهَبِ الاخْتِلَافِ حَوْلَ هَذَا الَّذِي يَقُولُ عَنْهُ: «رَأَيْتُ النَّاسَ مُخْتَلِفِينَ فِي مَذْهَبَيْنِ مِنْ مَذَاهِبِ الشِّعْرِ وَهُمَا الغُلُوُّ فِي المَعْنَى إِذَا شَرَعَ فِيهِ. والاقْتِصَارُ عَلَى الحَدِّ الأَوْسَطِ فِيمَا يُقَالُ عَنْهُ، وَأَكْثَرُ الفَرِيقَيْنِ لَا يَعْرِفُ مِنْ أَصْلِهِ مَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ وَيَتَمَسَّكُ بِهِ. وَلَا مِنَ اعْتِقَادِ خَصْمِهِ مَا يَدْفَعُهُ

(131) **ديوان الفرزدق** تحقيق: علي فاعور، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1987)، 2/ 519.
(132) المصدر نفسه، 2/ 519.
(133) قدامة بن جعفر: **نقد الشعر**، ص: 24.
(134) **نقد الشعر**، ص: 157، و**سر الفصاحة**، 271.
(135) **سر الفصاحة**، ص: 271. **والعمدة** لابن رشيق، ص: 50 - 52 -57.
(136) **سر الفصاحة**، ص: 271.
(137) السابق، ص: 271.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

وَيَكُونُ أَبَدًا مُضَادًّا لَهُ. لَكِنَّهُمْ يَخْبِطُونَ فِي ظَلْمَاءٍ فَمَرَّةً يَعْمِدُ أَحَدُ الفَرِيقَيْنِ إِلَى مَا كَانَ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ خَصْمِهِ فَيَعْتَقِدُهُ، وَمَرَّةً يَعْمِدُ إِلَى مَا كَانَ مِنْ جِنْسِ قَوْلِهِ فِي نَفْسِهِ فَيَدْفَعُهُ وَيَعْتَقِدُ نَقْضَهُ»[138].

فَالشِّعْرُ إِذًا يَنْحَصِرُ بَيْنَ قَاعِدَتَيْنِ: الأُولَى: أَحْسَنُ الشِّعْرِ أَصْدَقُهُ[139]: وَهِيَ فِكْرَةٌ مُنْكِرِي الغُلُوِّ فِي الشِّعْرِ؛ فِي الأَوْصَافِ الَّتِي تُفْضِي إِلَى الإِحَالَةِ نَتِيجَةَ الإِفْرَاطِ فِي مَعْنَاهَا. وَرُبَّمَا كَانَ هَذَا الرَّفْضُ مُوَافِقًا وَمُزَامِنًا لِأَوَّلِيَاتِ النَّقْدِ مِنْ هَذِهِ المَرْحَلَةِ. الثَّانِيَةُ: أَحْسَنُ الشِّعْرِ أَكْذَبُهُ[140]: وَهُوَ الأَمْرُ الَّذِي أَشَارَ بِهِ الخَفَاجِيُّ رِوَايَةً عَنِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيّ والَّذِي عَدَّهُ ابْنُ طَبَاطِبَا جَوْرًا عَلَى قُوَّةِ الخَيَالِ وَضَرْبًا مِنَ المَجَازِ المُبَاعِدِ لِلْحَقِيقَةِ. واعْتَبَرَهُ الآمِدِيُّ فِي نَقْدِهِ لِأَبِي تَمَّامٍ لِمُخَالَفَتِهِ لِلْعُرْفِ العَرَبِيّ إِذْ قَالَ: «هَذَا خِلَافُ مَا عَلَيْهِ العَرَبُ وَضِدَّ مَا يُعْرَفُ مِنْ مَعَانِيهَا»[141] وَيُسْتَحَبُّ مِنَ الآمِدِيّ «لو كَانَ اقْتَصَرَ عَلَى هَذَا المَعْنَى الَّذِي جَرَتِ العَادَةُ بِهِ ... لَكَانَ المَذْهَبَ الصَّحِيحَ المُسْتَقِيمَ. وَلَكِنَّهُ اسْتَعْمَلَ الإِغْرَابَ فَخَرَجَ إِلَى مَا لَا يُعْرَفُ فِي كَلَامِ العَرَبِ وَلَا مَذَاهِبِ سَائِرِ الأُمَمِ»[142].

يُسْتَنْتَجُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الخَفَاجِيَّ يَحْتَذِي بِقُدَامَةَ بْنِ جَعْفَرٍ وَيُخَالِفُ ابْنَ طَبَاطِبَا والآمِدِيَّ فِي مَسْأَلَةِ الغُلُوِّ.

10. التَّحَرُّزُ مِمَّا يُوجِبُ الطَّعْنَ:

وَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ بِكَلَامٍ لَوِ اسْتَمَرَّ عَلَيْهِ لَكَانَ فِيهِ طَعْنٌ، فَيَأْتِيَ مِمَّا يُتَحَرَّزُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ الطَّعْنِ[143] وَيُسَمَّى بِالاحْتِرَاسِ، وَقَدْ ذَكَرَهُ الجَاحِظُ فِي كتابِهِ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُسَمِّيهِ (إِصَابَةَ المِقْدَارِ)[144]، كَقَوْلِ طَرَفَةَ بْنِ العَبْدِ:

فَسَقَى دِيَارَكَ –غَيْرُ مُفْسِدِهَا– صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِي

فَلَوْ لَمْ يَقُلْ (غَيْرُ مُفْسِدِهَا) لَظُنَّ بِهِ أَنَّهُ يُرِيدُ تَوَالِي المَطَرِ عَلَيْهَا وَفِي ذَلِكَ فَسَادٌ لِلدِّيَارِ وَمَحْوٌ لِرُسُومِهَا[145].

11. الاسْتِدْلَالُ:

وَيَجْعَلُهُ الخَفَاجِيُّ عَلَى ضَرْبَيْنِ: الاستِدْلَالُ بالتَّمْثِيلِ والاستِدْلَالُ بالتَّعْلِيلِ.

1– الاستِدْلَالُ بالتَّمْثِيلِ: وَهُوَ أَنْ يَزِيدَ الكَلَامَ مَعْنًى يَدُلُّ عَلَى صِحَّتِهِ بِذِكْرِ مِثَالٍ لَهُ نَحْوَ قَوْلِ أَبِي العَلاءِ:

لَوِ اخْتَصَرْتُمُ مِنَ الإِحْسَانِ زُرْتُكُمُ وَالعَذْبُ يُهْجَرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي الخَصَرِ

([138]) **نقد الشعر**، ص: 61.
([139]) **سر الفصاحة**، ص: 271. **نقد الشعر**، ص: 60 - 61. إحسان عباس: **تاريخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني إلى الثامن الهجري**، (بيروت: دار الثقافة، 1983)، ط4، ص: 190.
([140]) **نقد الشعر**، ص: 65.
([141]) أبو بشر الآمدي: **الموازنة بين أبي تمام والبحتري** تحقيق: السيد أحمد صقر، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1990)، 1/ 243 - 244
([142]) **نقد الشعر**، ص: 160.
([143]) **سر الفصاحة**، ص: 274.
([144]) **البيان والتبيين**، 1/ 228
([145]) **سر الفصاحة**، 274.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الزِّيَادَةَ فِيمَا يَطْلُبُ رُبَّمَا كَانَتْ سببًا فِي الامْتِنَاعِ عَنْهُ، بِتَمْثِيلِ ذَلِكَ بالمَاءِ الَّذِي لَا يُشْرَبُ لِفَرْطِ بَرَدِهِ، وَإِنْ كَانَ لِبَرَدٍ فِيهِ مَطْلُوبًا مَحْمُودًا[146].

2- الاستِدْلَالُ بالتَّعْلِيلِ: وهُوَ نَفْسُ مَا سَمَّاهُ البَلَاغِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ بِاسْمِ (حُسْنِ التَّعْلِيلِ) كَقَوْلِ أَبِي الحَسَنِ التُّهَامِيّ:

لَوْ لَمْ يَكُنْ أُقْحُوَانًا ثَغْرُ مَبْسَمِهَا مَا كَانَ يَزْدَادُ طِيبًا سَاعَةَ السَّحَرِ

مِنَ الجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَنَّ الخَفَاجِيَّ احْتَذَى حَذْوَ قُدَامَةَ بْنْ جَعْفَرٍ، كَمَا أَنَّ الاستِدْلَالَ الَّذِي ذَكَرَهُ الخَفَاجِيُّ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي سَمَّاهُ أَبُو الهِلَالِ العَسْكَرِيُّ بِاسْمِ الاستِشْهَادِ والاحْتِجَاجَ[147].

وَيَذْكُرُ الخَفَاجِيُّ بَعْدَ بَسْطِهِ صِفَاتِ اللَّفْظِ والمَعْنَى وَمَا يَكُونُ سببًا فِي حُسْنِهَمَا وَكَمَالِهِمَا قَوْلَهُ: «إِنَّ الطُّرُقَ فِي نَقْدِ الشِّعْرِ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ نُعُوتِ الألفَاظِ والمَعَانِي»[148].

يُلَاحَظُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الخَفَاجِيَّ قَدْ شُغِلَ بالمَحَاسِنِ والعُيُوبِ للألفاظِ والمَعَانِي وَفِي تَقْسِيمَاتِهِمَا الكَثِيرَةِ متأثرًا بقُدَامَةَ بْنِ جَعْفَرٍ، وَقَدْ كَانَ لابْنِ سِنَانٍ الخَفَاجِيّ جُهْدُهُ البَلَاغِيُّ والنَّقْدِيُّ فَبَيَّنَ قِيمَةَ الألفَاظِ المُفْرَدَةِ والألفَاظِ المُرَكَّبَةِ وَبَحَثَ خَصَائِصَهَا الصَّوْتِيَّةَ وَمَا يَعْتَرِيهَا مِنَ العِلَلِ والمُحَسِّنَات وَكَذَلِكَ فَعَلَ فِي المَعَانِي.

الخَاتِمَةُ

تَوَصَّلَتِ البَاحِثَةُ إِلَى النَّتَائِجِ الآتِيَةِ:

- رَكَّزَ ابْنُ سِنَانٍ عَلَى الألفَاظِ المُفْرَدَة والألفَاظِ المُرَكَّبَةِ وَجَاءَتْ جُهُودُهُ ثَمَرَةً لِجُهُودِ عُلَمَاءَ أَفْذَاذٍ فِي مُقَدِّمَتِهِمُ الجَاحِظُ.
- تَنَاوَلَ ابْنُ سِنَانٍ قَضِيَّةَ الفَصَاحَةِ والبَلَاغَةِ وَنَجِدُ أَنَّ هَذِهِ القَضِيَّةَ وُجِدَتْ عِنْدَ المُتَأَخِّرِينَ فَمُقَدِّمَةُ كِتَابِ الإِيضَاحِ للخَطِيبِ القَزْوِينِيّ تُلَخِّصُ مَا قَالَهُ الخَفَاجِيُّ فِي كتابِهِ.
- أَفَادَ ابْنُ الأَثِيرِ مِنْ جُهُودِ الخَفَاجِيّ خَاصَّةً فِي شُرُوطِ اللفظَةِ المُفْرَدَةِ.
- عَرَضَ للمُحَسِّنَاتِ اللَّفْظِيَّةِ والمَعْنَوِيَّةِ مِنْ غَيْرِ تَرْتِيبٍ، كَمَا قَدَّمَ المُطَابَقَةَ والمُقَابَلَةَ كَنَوْعٍ مِنْ تَنَاسُبِ الألفَاظِ عَنْ طَرِيقِ المَعْنَى، وَقَدِ انْتَهَجَ المُتَأَخِّرُونَ نَهْجَهُ وَفَرَّقُوا بَيْنَ المُحَسِّنِ المَعْنَوِيّ واللَّفْظِيّ، كَمَا أَنَّهُ سَبَقَ فِي اكْتِشَافَ مَا يُسَمَّى بالاستِدْلَالِ بالتَّعْلِيلِ وَيَقْصِدُ بِهِ حُسْنَ التَّعْلِيلِ.
- التَّلَاؤُمُ بَيْنَ اللَّفْظِ والمَعْنَى لَا يَأْتِي إِلَّا بالعِنَايَةِ بالألفاظِ مَعَ المَعَانِي حَيْثُ إِنَّهُ وَضَعَ فِي قَائِمَةِ الفَصَاحَةِ والبَلَاغَةِ تِلْكَ الألفَاظَ الَّتِي تُوضَعُ فِي مَوَاضِعِهَا حَتَّى تَأْتِيَ اللَّفْظَةُ بِجَانِبِ أُخْتِهَا مُنْسَجِمَةً مِمَّا يَزِيدُ المَعْنَى وُضُوحًا وَحُسْنًا.

([146]) السابق، ص: 275.

([147]) أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص: 416.

([148]) سر الفصاحة، ص: 329. والبسيوني أحمد منصور: الخصومة بين القديم والجديد في النقد العربي القديم، (مكتبة الفلاح، د. ت)، ص: 226.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية